

إلى كل فتاة تؤمن بالله

تأليف

الدكتور محمد سعيد البوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، سبحانه اللهم لا أحصي ثناءً عليك أنت على نفسك.
وصلّى اللّٰهُمّ أفضل صلواتك على خاتم رسلك وأنبيائك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
وأشرح اللهم صدري، ويسّر لي أمري، وارزقني نعمة الإخلاص، وقني فتنة النفس والهوى، وجنبي مزالق الشيطان، إنك نعم المولى ونعم النصير.

...

مقدمة الطّبعة الثّانية

ربّ ضارة نافعة، ورب عمل استهدف شيئاً فأتى بنقيضه!..
كتب كاتب معروف، في مجلة ذائعة معروفة يدعو إلى تحطيم ما أقامته الشريعة الإسلامية بين الرجل والمرأة من حواجز الخلطة وأقنعة الستر والاحتشام، وأخذ يتصيد لذلك من الأدلة ما يطمع أن يكون فيه لبس وغموض، يصرفنا الناس عما ينطوي عليه من دلالة الحق. فكان من آثار ذلك ما لم يتوقعه الشيخ الذي كتب، ولا المجلة التي نشرت، وأذاعت.
بل كان أن تنبه أكثر المسلمين من ذلك، إلى عظيم تقصيرهم وتهاونهم في جنب الله بصدد هذا الأمر الخطير، والنقطة جمهرة كبرى من الفتيات والنساء المسلمات الصادقات إلى حقيقة الحكم الإلهي الثابت في حق المرأة، مما يتعلق بسترها واحتشامها وعلاقتها بالرجال، وراحت تتأمل في دعر ووجل، الأرض التي تقف عليها، وبعد ما بينهما وبين ساحة الإسلام ودائرة الآداب الإسلامية.
ونشر الكتاب المسلمون. زادهم الله توفيقاً واجزل لهم المثوبة والأجر. في أكثر البلاد العربية بحثاً ورسائل في بيان الحق الذي نص عليه كتاب الله، وأوضحته سنة رسول الله، والتقى عليه أئمة المسلمين، مما يتعلق بهذا الصدد، ولم تكن رسالتي هذه إلا مشاركة بسيطة في ذلك.

وسرعان ما ظهر أثر الدعوة الصادقة إلى الحق، تفاعلاً معه، وانصباعاً به، وانعطافاً إليه.
وللحق دائماً شارة يعرف بها، يتبينها كل مخلص في طلبه، صادق في الاتجاه إلى فهمه. وللباطل دائماً ميعة والتواء يبينهما كل ذي نظر وفهم، مهما جاء مكتسباً به من اقنعة الحق والرشاد.

الحق ينجي العقل دائماً، أما الباطل فإنما يحاول أن يتسلل خفية منه إلى رغائب النفس.. والحق يتعامل مع الناس بالأدلة والبراهين الحرة، أما الباطل فيستعين للوصول إلى نفوس الناس بالكاريكاتير الساخر أو التشويه الكاذب أو الصور المستبشعة!.. والحق قد يأتي ثقيلاً في وطأته على النفس، ولكنه يتسم في مقابل ذلك بالترفع عن أي غرض خفي أو حاجة مستكنة. أما الباطل فقد يكون خفيفاً في وطأته على النفس، ولكنه يستبطن في مقابل ذلك غرضاً خفياً يستهدف إليه بكيد وخداع.

وأثقل ما في الباطل أن صاحبه يصطنع له من البراهين ما يعلم أنه ليس إلا مصانعة وتلبيساً، فهو لا يفتأ يصانع في الكلام ويشقق له المذاهب والأشكال، وطمعاً في أن يصدق الناس ظاهر ما يقول ويذهلوا عن باطن ما يهدف إليه.

يقول صاحب المجلة المذكورة، دفاعاً عن صاحبه الشيخ فيما كتب يدعو إليه. وتخليلاً لأسباب الردود الكثيرة التي فندت أقواله ومفاهيمه العجيبة: (.. قصص بالطبع تشق على من نشأ بين الحجب الكثاف، وعلى من آمن بقدّم الحجاب).

قال الرجل هذا، وكأنه لا يعلم العكس أيضاً، وهو أن القصص الدالة على مشروعية الحجاب تشق على من نشأ في أجواء من الاختلاط الفاحش، وآمن بأحقية ذلك وقدمه!..

ولم ينس الرجل أن يدعم دفاعه هذا، بريشة الفنان الذي يستعين به لتجسيد أبرز الأفكار في مقالاته، فاستخرج من خياله صورة فتاة اتخذت من أشكال الستر والصيانة أبشع ما تشمئز منه النفس وينبو عنه الذوق . وهو يعلم، كما يعلم كل عاقل، أن الفنان الذي فعل هذا، يستطيع لو شاء أن يستخرج من خياله صورة فتاة اتخذت من أشكال هذا الستر أجمل ما تستسغه الفطرة ويتفق معه الذوق .
يا أخي القارئ: إن الذي يملك من البيان مما يخيّل به إليك أن العسل (وهو من ألد وأنفع ما عرف من الطيبات) شيء بشيع مستنذر تعافه النفس . بليغ في أرباب البلاغة والبيان، ولكنه بدون ريب يصرفك عن الحقيقة إلى عكسها
وإن الذي يملك من الإخلاص لك ما ينبهك به إلى أن في تلك الكأس البديعة من الشراب الرائق العذب، سمّاً ناعماً قد يؤدي بحياتك، ويحرمك من لذة عاجلة ولا ريب . ولكنه بدون شك صديق مخلص يستأهل منك كل ود وتقدير .

وبعد، فحسب الحق انتصاراً، أن الآلاف التي طبعت من هذا الكتاب، نفذت خلال الأشهر الأربعة من ظهوره، وأن رغبة حقيقية تلح في إعادة طبعه، وأن كل فتاة منصفة آمنت بالله ورسوله، قد أعترفت بالحق الذي فيه وإن لم تكن متلبسة به، وفندت ذلك بالباطل وإن كانت أسيرة له.

محَمَّد سعيد رمضان البوطي

إلى كل فتاة تؤمن بالله

وإنما أعني بالفتاة التي تؤمن بالله، تلك التي أيقنت بوجوده إلهاً واحداً لا شريك له في ذاته وصفاته، وأيقنت انه النافع فلا نافع سواه، وأنه الضار إذا شاء فلا ضار سواه إليه مرجع الناس كلهم في يوم عظيم لا ريب فيه، يكشف فيه الحجاب عن كل غيب مشهور وحقيقة خافية، يوم الحسرة والندامة لمن كان قد أغتر بدنياه وفرط في جنب الله، ويوم الغبط والسعادة لمن كان قد فهم الدنيا على حقيقتها، فاتخذ منها عوناً لسلوك السبيل إلى مرضاة الله.
فلا جرم أنني لا أعني بها تلك التي سمعت بالله ولم تفهم عنه شيئاً، وورثت كلمة الإيمان شعاراً على اللسان ولم تستيقن مضمونها عقيدة في الجنان. قد يتكرر اسم الله على لسانها في اليوم عشرين مرة، ولكنها لا تتنبه لسلطانه وبالغ سطوته في الشهر أو العام مرة واحدة. إذا ذكرت به أو فكرت فيه لم تعلم عنه شيئاً سوى أنه . كما يقولون . حقيقة خفية كبرى، كالذي كانوا يسمعون الأثير، لا يدرون عنه شيئاً سوى أنه سر خفي من اسرار هذا الوجود. فلو كان لإيمانها بالاثير من سلطان على سلوكها ولون حياتها، لكان لإيمانها بالله عليها مثل هذا السلطان.

مثل هذا الإيمان، لا يسمى إيماناً على سبيل المشاكلة والمجاز .

ومثل هذا الإيمان لا يورث القلب أي خشية، ولا يقود صاحبه إلى أي اتجاه، ولا شأن له بتقويم شيء من مظاهر الحياة والسلوك.
ومثل هذا الإيمان الرخيص مثور بكثرة في مجتمعات أوروبا وفي ربوع أمريكا، وتراه يسير جنباً إلى جنب مع كل ما تقور به تلك المجتمعات، من الفساد الخلقي، والتعقد النفسي والاستغراق في سكرة الحياة المادية الجانحة!.

فأنا إنما أتجه بحديثي في هذه الرسالة إلى كل فتاة آمنت بالله إيماناً إرادياً حراً منبتقاً عن رضاها القلبي وشعورها النفسي، وبقيني أن مجتمعنا يفيض بكثير ممن يتمتعن بهذا الإيمان .

أتجه إلى كل فتاة تؤمن في قرارة قلبها بالله هذا الإيمان لأقول لها:

إن أمر وجودنا في هذه الحياة جد وأخطر من الجد!..

فلا يحجبك عن تصور عاقبتها أن لون من ألوان مغرياتها، ولا ينسينك هوانها كثرة ما ترين من المتعلقين بها. ولا تنسي أن الناس إنما يجتازون إلى الله، في هذه الدنيا بساعة امتحان، سواء علموا ذلك أم جهلوا، وربما طالت هذه الساعة أو قصرت، ولكنها على كل حال ليست أكثر من ساعة امتحان.

وإذا كان الاجتياز بهذه الساعة الامتحانية قدراً مشتركاً بين الرجال والنساء على السواء، فإن المرأة تمتاز عن الرجل بحمل عبء آخر شديد الخطورة في الدنيا وعظيم الأثر في العقبى!..

فالمراة بالإضافة إلى كونها تشترك مع الرجل في اجتياز هذه الساعة الامتحانية، تعد مادة من أهم موادها الامتحانية ذاتها!.. ذلك لأن الشهوات على اختلافها هي المنزلق الامتحاني الذي بسط الله به وجه هذه الدنيا. وإنما المرأة . بتقرير الله تعالى وصريح بيانه . أول نوع من أنواع هذه الشهوات. أو ليس هو القائل:

(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب)

آل عمران- ١٣ .

فقد عد الله النساء في أول مراتب الشهوات التي وضعها زينة وابتلاء في طريق الناس. ولولا انها تفوق سائرهما في الخطورة والاهمية، لما جعل مرتبتها في الذاكرة قبلهن جميعاً.

وإذاً، فالمراة في حياة الإنسان أخطر ابتلاء دنيوي على الإطلاق.

وسر ذلك، أن جميع الآثام التي حظرها الله تعالى على عباده، ليس بينها وبين الإنسان أي انسجام فطري. فالظلم بأنواعه المختلفة محرم، ويعين الإنسان على تجنبه أن الفطرة الإنسانية تشمئز منه. وشرب الخمر محرم، ويهون من أمر تحريمها ان الفطرة الإنسانية الأصلية تعافها، وكذلك السرقة والغش والغيبة والنميمة وبقية المحرمات الأخرى، كلها لا يتفق مع مقتضيات الفطرة الإنسانية السليمة، ولا ينجح إلى شيء منها إلا ابتلي بشذوذ أو انحراف في طبيعته وفطرته لسبب من الأسباب التي قد تطرأ في حياة الإنسان.

وإنما يستتي عموم هذه الآثام شيء واحد فقط، هو الغريزة الجنسية في كل من الرجل والمرأة، فهي على الرغم من كونها تدفع إلى ارتكاب محظور، يعد في ذروة المحاذير الشرعية . ما لم ينضبط بحدود وقيود معينة . تعتبر من أخص مستلزمات الفطرة الإنسانية وأهم متطلباتها، ولا سبيل لأي إنسان (ما دام إنساناً طبيعياً لا شذوذ فيه) إلى أن ينفك عنها أو يسمو فوقها.

ومن خلال هذه المقارنة تستطيعين أن تدركي بأن الشهوة الجنسية في الإنسان أخطر ابتلاء ديني في حياته. إذ في الوقت الذي تقف الفطرة الانسانية فيه عوناً على تطبيق حكم الله بالنسبة لمختلف المعاصي والمنكرات، فإنها تقف بالنسبة للشهوة الجنسية مثيرة لها، أو عاجز . في أحسن الأحوال . عن أن تكبح لجامها أو تقلل شيئاً من هياجها.

وبناء على ذلك فإن العلاج الإسلامي بالنسبة لسائر المعاصي يكمن في مزيد من الابتعاد عنها والاستعلاء فوقها. أما بالنسبة لأمر الجنس خاصة فقد كان العلاج هو الارتواء منه وإمتاع الغريزة به ولكن ضمن حدود مرسومة معينة لا يتجاوزها. فهذا معنى قولنا: إن المرأة أخطر مادة امتحانية في حياة الرجل على الإطلاق.

وربما تقولين: ولماذا لا يعتبر الرجل أيضاً أخطر مادة امتحانية في حياة المرأة، ما دام الشعور الجنسي شائعاً بينهما، وبذلك يتساوى عبء كل من الرجل والمرأة وتتكافأ مهامهما؟!..

والجواب: أن الفاطر الحكيم جل جلاله أقام فطرة المرأة على أسس نفسية جعلت منها مطلوبة أكثر من أن تكون طالبة، فهي مهما استشعرت إلحاحاً غريزياً في كيانها، تظل ميالة . بدافع من عوامل نفسية أصيلة لديها . إلى أن تتحصن بمركز الانتظار والاستعلاء وأن تقرض على الرجل ظروفاً وأسباباً تجعله يلح في طلبها والسعي وراءها، وبذلك تكون المرأة فتنة للرجل أكثر من أن يكون الرجل فتنة لها.

وقد قرر رسول الله (ص) هذه الحقيقة باختصار في قوله: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) متفق عليه.

وإذا قد فرغنا من إيضاح هذه الحقيقة ، فلتعلمي أن أمر هذه الفتنة التي ابتلي بها الرجل . تشديداً وتهويناً . عائد إليك .
فالمرأة تستطيع إذا شئت أن تجعل من شأن نفسها بلاء صاعقاً للرجل، لا يكاد يجد سبيلاً للنجاة منه. وتستطيع أن تجعل من شأن نفسها عوناً له على السير في طريق السلامة والنجاة.

وكم من أمة كانت ذات شأن وسلطان بين سائر الأمم فتضاءل شأنها ثم تهاوى سلطانها، بما شاع بينهما من الإباحية والتفسخ الأخلاقي. ولم يكن عامل ذلك كله إلا المرأة!. وما قصة انحاق الدولة الرومانية والمزديكية والحضارة الهندية عن الناس ببعيد.
ومن هنا كان أخطر الوظائف الإسلامية التي كلف الله بها المرأة، أن تعمد سلاح فتنتها أمام الرجال ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً حتى لا يقعوا في رهق من أمر هذا البلاء أو الامتحان.

وقد تم الإجماع على أن المرأة لا تحرز رضى الله تعالى عنها بعمل من الأعمال الصالحة، كما تحرزه بالسعي في سبيل يعين الرجل على الاستقامة الخلقية وضبط نوازعه الشهوانية، ولا تسبب لغضب الله تعالى عليها بعمل من الأعمال المحرمة كما تسبب إلى ذلك بالسعي في سبيل تثير الرجل نوازعه الشهوانية وتقصيه عن أسباب الاستقامة والعفة الخلقية.
وما كان أكثر أهل النار النساء . بإخبار النبي عليه الصلاة والسلام . في الحديث الصحيح، إلا لجملة عوامل من أهمها أنهن لا يتقين الله تعالى في هذه الوظيفة الخطيرة التي أناطها الله تعالى بهن.

وأنت تعلمين أيتها الأخت المؤمنة بالله، أن أهم ما يخيف الغرب . بشطريه الأوربي والأمريكي . من المسلمين إنما هو إسلامهم!..
فلقد علم قادته، نتيجة دراسات موضوعية مستوعبة، أن النهضة الأوروبية لم تشرق في حياتهم إلا يوم أن غربت فاعلية الإسلام وقوته من حياة المسلمين.

فلولا ما ساد العالم الإسلامي من ظلام الابتعاد عن منهج الإسلام وحكمه، لما أشرق في العالم الأوربي ضياء شيء من المعارف والعلوم، ولما أمكنته الفرصة من الاستفادة من ذلك.

ونتيجة لهذا اليقين المستقر في أعماقهم، فإنهم لا يسعون للمحافظة على مكاسب نهضتهم هذه بوسيلة أهم وأخطر من العمل الدائب، بكل الوسائل الممكنة، على أن يظل المسلمون بعيدين عن إسلامهم، تائهين عن تاريخهم ومصدر أمجادهم، وعلى أن يشغلوا عن جوهر الإسلام وحكمه بكل ما يصلح أن يكون تعويضاً لهم عن ذلك..

وما أظنك بحاجة إلى دليل يكشف لك عن صدق هذه الحقيقة، فقد باتت همسات القادة والمفكرين الغربيين حول ذلك، مسموعة في كل بيئة ومحيط، بل لقد تحولت . لحسن الحظ . إلى صرخات عالية مسموعة، يستطيع أن يسمعها من كانت له أقل مشاركة في الثقافة المعاصرة.

ومع ذلك، فلعل من الخير أن أذكرك بنموذج من هذا الهمس الذي انقلب أخيراً إلى صوت واضح مسموع، يتبينه كل مبصر بطبيعة العصر الذي يعيش فيه.

إليك هذه المقاطع من كتاب (إلى أين يتجه الإسلام؟ whither islam?) الذي اشترك في تأليفه جماعة من المستشرقين المختلفي الأجناس، وأشرف على جمعه وتأليف بحوثه والتقديم لها والتعليق عليها المسترق الإنجليزي وأحد مستشاري وزارة الخارجية الإنجليزية ه . ا . ر . جيب . يقرر جيب في المقدمة الخطيرة التي كتبها لهذا الكتاب . وهي طويلة تبلغ مائة صفحة . ان العوامل الإقليمية المختلفة لم تستطع أن تؤثر في وحدة الحضارة الإسلامية أو تنال منها على تعاقب الأزمان وتباين الأصقاع، مما جعل العالم الإسلامي كتلة سياسية خطيرة وجعل منه عالماً مترامياً الأطراف يحيط بأوروبا إحاطة محكمة تعزلها عن العالم.

ثم يشرح كيف أن الغرب قد نجح في كسر هذا الطوق وتفتيت الحضارة الإسلامية والقضاء على وحدتها. ويقول في أعقاب ذلك:
(وهكذا، فإن الموازين الدينية والتعاليم الأخلاقية في الإسلام، آخذة في التحول، وإن هذا التحول يتجه نحو تقريبه من الموازين الغربية في الاخلاق التي هي في الوقت نفسه متمثلة في التعاليم الأخلاقية للكنيسة المسيحية).

ويقرب جيب بعد ذلك أن النشاط التعليمي والثقافي عن طريق المدارس العصرية والصحافة، قد ترك في المسلمين . من غير وعي منهم . أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد. ثم يعقب على ذلك بقوله:

(وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركته محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار).

ثم إن جيب يجزم بعد ذلك مغتبطاً بأن (العالم الإسلامي سيصبح خلال فترة قصيرة لا دينياً في كل مظاهر حياته ما لم يطرأ على عوامل ليست في الحسبان).

ولكنه يعود فيظهر فزعه من احتمال ظهور دفع إسلامي جديد يبطل مفعول هذه الثمرات الغربية كلها فيقول: (ولكن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة. فهي تتفجر انفجاراً مفاجئاً ، قبل ان يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم الى الاسترابة في أمرها. فالحكومات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة، لا ينقصها إلا ظهور (صلاح الدين جديد) ^[1]).

فماذا كان السلاح الاول الذي استعمله الغربيون لتفتيت الحضارة الإسلامية وتحويل الأخلاق الإسلامية عن وجهتها الإسلامية الأولى؟ إن أمضى سلاح شهره الغرب لتحقيق هذه الغاية إنما هو: عنصر المرأة.

فلقد علموا، ما نعلمه نحن اليوم، من أن الشبهات العقلية لا يمكنها أن تفعل في عقول المسلمين عشر ما يمكن أن تفعله في نفوسهم الإثارات الجنسية، وإذا كان لابد من شبه فكرية يطرحونها، فلا مناص من أن يكون بين يدي ذلك ومن خلفه دوافع أو آثار شهوانية تجند له المرأة.

فمن أجل ذلك يقوم الغزو الفكري للمسلمين . مهما تنوعت مظاهره . على عنصر هام لا بديل عنه، هو المرأة بكل ما يمكن أن يستغل فيها من عوامل الفتنة والتأثير والإغراء، ومن أسباب الإقصاء بها عن رعاية النشء والأسرة.

وما أظن أنك بحاجة إلى عرض الأدلة المسهبة على هذه الحقيقة أيضاً. فقد باتت دلائل ذلك مكشوفة واضحة يعرفها ويتناقلها كل من كانت له مشاركة بسيطة في ثقافة العصر ومعرفة طبيعته.

ومع ذلك، فلأضع بين يديك هذا النموذج من كلام المبشر والمستشرق المعروف (جسب):

(إن مدارس البنات في البلاد العربية هي بؤبؤ عيني. لقد شعرت دائماً بأن مستقبلنا في سورية إنما هو بتعليم بناتها ونسائها. لقد بدأ نشاطنا في ذلك على ضعف، ولكن هاهي ذي قد أثارت اليوم اهتماماً شديداً في أوساط الجمعيات التبشيرية) ^[2].

ولا اظن أن أي إنسان وقاه الله من لوثة الجنون في عقله، يمكنه أن يتصور بأن مدارس البنات هي بؤبؤ عيني جسب، لشدة ما يغار على مصلحة البلاد الإسلامية والعربية أو لشدة ما يهيمه شأنها ويخلص في حب الخير لها!.

لقد كانت بؤبؤ عيني، لأنه كان يدرك مدى ما للمرأة من أثر في تقويم حياة الجيل أو إفسادها. وإذا فلا بد من الاعتماد على مدارس البنات والسيطرة من هناك على تربيتهن وتوجيه سلوكهن.

ولكن كيف اتخذ قادة الغزو الفكري من عنصر المرأة سبيلاً لتحقيق الغاية التي كانوا، ولا يزالون يستهدفونها؟

والجواب باختصار: إنهم ساروا إلى ذلك في خط معاكس لكل ما قد قضى به الإسلام من حكم في حق المرأة!..

فمما قضى به الإسلام في حق المرأة أن تتمتع بالصيانة والستر، وأن لا تبدي من مفاتها أمام الرجال. فكان سبيل هؤلاء هو العمل على إبعادها ما أمكن عن قيود الصيانة والستر، ودفعها ما أمكن أن تبرز مفاتها المختلفة في سائر الأماكن والأسواق والمجمعات.

واستعانوا لتحقيق ذلك بكل منافق عليم اللسان، مستعد لأن يبذل كلام الله وحكمه لقاء عرض من الدنيا قليل.

^[1] من كتاب: إلى أين يتجه الإسلام. وانظر الجزء الثاني من كتاب الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين. من ص ٩٧ إلى

^[2] التبشير والاستعمار لمصطفى الخالدي وعمر فروخ: ٨٧.

ومما قضى به الإسلام، أن لا تتبرج المرأة المسلمة كتبرجها الجاهلي المعروف، وأن تقر في بيتها وتبذل قصارى جهدها في سبيل إنشاء أسرة صالحة وتربية ذرية طيبة.

فكان سبيل هؤلاء هو العمل على أن لا تطيق المرأة قراراً في بيتها وان تحمل من أعباء الحياة ووظائفها المختلفة ما لا يدع لها مجالاً للنظر في بيتها أو تربية أولادها. واستعانوا لتحقيق ذلك بالتركيز على أضعف نقطة يعاني منها المسلمون أخطر عقدة مستحكمة. فلقد راحوا يروجون بأن سر تخلف المسلمين . وإن التصنيع لا ينهض إلا بإشراك المرأة في العمل كما راحوا يكررون ويعيدون على مسامع المسلمين بأن العالم الغربي إنما يتقدمهم بشيء واحد هو التنبه إلى هذه الحقيقة فهم يستغلون سائر طاقاتهم الإنسانية بدلاً مما يفعله المسلمون من إهدار نصفها!..

ولقد انطلت هذه الحيلة، التي باتت اليوم قديمة ومكشوفة، على عقول طائفة كبيرة من ناشئة المسلمين وقادتهم، حتى باتوا يتصورون حقاً بأن سر تخلف المسلمين إنما يكمن في هذا الحجاب الذي تسدله المرأة على وجهها أو تفيض منه على مفاتها، وأنه ليس بيننا وبين أن نلحق بركب المدينة الحديثة ونتساوى مع من حولنا من شعوب العالم الراقي إلا أن نضاعف أيدي الرجال العاملين بمثلها من أيدي النساء العاملات.

ولقد بات الحديث بعد ذلك عن حكم الإسلام في لباس المرأة وعملها وتعلمها، مثار استهجان أو محل استشكل، بل بات ذلك دليلاً عند هؤلاء الناس على أن الإسلام إنما يشد أهله إلى الوراء بدلاً من أن يدفع بهم إلى التقدم والصعود في مدارج الرقي. وزاد البلاء خطورة ما ظهر حول وخلف هؤلاء الناس، من متلاعبين بنصوص الشريعة الإسلامية وأحكامها، ابتغاء الحصول على مأرب دنيوي، أو أنقاء خسارة مركز أو زعامة أو منصب، وإنما نصوص الشريعة ألفاظاً للقوانين، فكما أن المحامي الذي يطمع في كسب مالي معين لا يعجزه شيء عن أن يؤول المواد القانونية ويتلاعب بالفاظها ودلالاتها فكذلك العالم الذي لا يبالي بغضب الله تعالى وأليم عقابه لا يعجزه شيء عن أن يؤول نصوص الشريعة ويتلاعب بالفاظها ودلالاتها.

ولقد كان من نتيجة هذا البلاء أن ازداد سواد الشر الذي خطط له الغرب، بواسطة من ضللتهم فتاوى هؤلاء المتلاعبين، فأنحرفوا عن المنهج الإلهي بنية حسنة، وتاهوا عن الصراط السوي من وراء تقليدهم لهؤلاء الكبراء، فقد ظنوا أنهم إنما يدلونهم على صراط الله، فإذا هم يقودونهم إلى مهاوي الشقاء الأبدي الأليم!.

وبعد، فهذه هي المشكلة، لخصتها لك في هذه المقدمة التي كان لابد منها، والقصد أن نتجه بعد ذلك إلى سبيل منطقي قريب لحلها. وإنما السبيل المنطقي إلى ذلك أن نبين حكم الله تعالى في لباس المرأة وعملها وتعلمها، نقياً عن زيادات المتزידين، صافياً عن شوائب المبدلين أو المتلاعبين. والمفروض أنني إنما أخطب في هذه الرسالة . كما قلت . كل فتاة تتمتع بإيمان صادق بالله. ومن ثم فهي لا تبغي مزيداً على معرفة حكم الله عز وجل بدقة ويقين في هذا الموضوع.

ومع ذلك فإننا إذا انتهينا من ذلك ، عرضنا لمختلف المشكلات والعوائق التي تخلق وتوضع في طريق تنفيذ هذا الحكم الإلهي الخطير .

هل هي حقاً مشكلات؟، وهل حقاً يترتب على الأخذ بحكم الله في هذا الأمر قيام سد منيع بيننا وبين الانطلاق صعوداً في مدارج التقدم والرقي؟.. ولسوف نعالج الموضوع . بإذن الله . بتجرد خالص، وتحرر كامل عن أن لون من ألوان العصبية، حتى إذا تجلى لنا الحق، لم يحل بيننا وبين الأخذ به أي مانع.

ولا ضير علينا، بعد أن نعلم حكم الله تعالى، من أن نتلمس نتائج تطبيق هذا الحكم من حيث كلا جانبي النفع والضرر . فإن اكتشاف نتائج النفع فيه يزيد إيماننا يقيناً ويكسبنا العبرة المفيدة بالنسبة لسائر الأحكام الإلهية الأخرى، كما أن اكتشاف أي نتائج ضارة فيه . على فرض ذلك . يعطينا صلاحية النظر والاجتهاد في الأمر، فإن حكم الله تعالى لا يمكن أن يتلبس به أي ضرر أو مفسدة حقيقية، ومن قواعدها التشريعية الكبرى قول رسول الله(ص): (لا ضرر ولا ضرار).

ورجائي منك أيتها الأخت المؤمنة أن تتلقى ما أقوله لك بميزان من الوعي الفكري السليم، والنظر العقلي المتحرر عن أي تبعية أو داعية من الدواعي الشهوانية . فإن الشبهة ما ينبغي لها أن تتحكم بناصية البحث . وبميزان من الرقابة الحية لإيمانك بالله عز وجل . نسأل الله تعالى أن يقينا من شرور انفسنا، وأن يوفقنا لاستعمال عقولنا، وأن يجنبنا مزالق الشياطين كلهم . وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق إنه خير الفاتحين .

وهذا هو حكم الإسلام

وأعوذ بالله أن أقول: حكم الإسلام، ثم أخطأ به شيئاً من رأيي، أو بعضاً مما قد تشتهيه نفسي . وأعوذ بالله من أن ألبس على الناس ما لا يمكن أن يلتبس على الله، فأجعل قولاً تنزع إليه نفسي بزينة زائفة من الدين لا يرضى عنها ربي! .. إن الكاتب يستطيع إذا شاء أن يخلط بين رأي باطل تشتهيه نفسه، وحق واضح قد قضى به ربه، ولكنه إنما يخلط بذلك على الناس أو فئة منهم . أما في علم الله عز وجل . وهو الرقيب على كل شيء . فإن الحق لا يعتريه بذلك أي تبدل ولا أختلاف . وكل ما قد يكون جناه الكاتب بتلبسه الذي أقدم عليه، أنه تحمل أوزاراً مما قد اقترفه الناس في جنب الله، اعتماداً على ما قد أفتاهم به من الحكم الذي خيل إليهم أنه حكم الله .

وما أغنى الكاتب المؤمن بالله واليوم الآخر عن أن يذل عنقه لأوزار يتحمل عن الناس تبعاتها، ليجد يوم القيامة أليم نتائجها وسوء مغباتها، وما أغناه عن أن يجعل نفسه واحداً من أولئك الذين يدأبون على تضليل الناس عن معالم الحق الإلهي، حتى إذا اجتمع الناس لليوم الذي لا ريب فيه، واكتشف هؤلاء المضللون عظم الخديعة التي أبعدوا بها عن الحق، اتجهوا إلى ربهم يقولون: (ربنا إننا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) الاحزاب: ٦٧ و٦٨ . أجل، فأنا أعوذ بالله من أن أزعم للناس أنني أحدثهم عن حكم الإسلام في شأن من شؤون المرأة، ثم أنحاز بهم إلى سبيل هوى من أهواء النفس أو غرض مما قد تستدعيه مصالح الدنيا، فأكون بذلك واحداً من هؤلاء الكبراء الذين يقفون غداً أمام محكمة الله عز وجل، وقد تعلق بأذيالهم المغرورون وأما المخدوعون من الناس، يطلبون لهم من الله عز وجل مزيداً من العذاب، ومزيداً من اللعن والعقاب .

وقائع الأحوال ليست دليلاً على أي حكم شرعي:

وإنما يؤخذ حكم الإسلام من نص ثابت في كتاب الله تعالى، أو حديث صحيح من سنة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، أو قياس صحيح عليهما، أو إجماع التقى عليه أئمة المسلمين وعلمائهم . فلا جرم أن التصرفات الفردية من آحاد الناس، أو ما يسميه الأصوليون بـ (وقائع الأحوال)^[3] لا يعبر أساساً أو دليلاً لأي حكم شرعي صحيح، سواء أكان هؤلاء الآحاد من صاحبة أو التابعين أو ممن دونهم . بل المقطوع به عند المسلمين جميعاً أن تصرفاتهم هي التي توزن . صحة وبطلاناً . بميزان الحكم الإسلامي، وليس الحكم والإسلامي هو الذي يوزن بتصرفاتهم ووقائع أحوالهم .

^[3] وقائع الأحوال وقضايا الأعيان هي عبارة عن مواقف فردية وقعت في عصر التشريع، على خلاف مقتضى ادلة العموم كقول رسول الله (ص) لأبي بردة وقد أراد أن يضحي بعنق: تجزئك ولا تجزئ أحداً بعدك . وكترويجه أحد أصحابه فتاة بما معه من القرآن، أي بدون مهر من المال العيني، وكاعتباره شهادة خزيمة بمنزلة شاهدين، وكمسحه (ص) على عمامته في الوضوء . فهذه وأمثالها لا يقاوم عليها أحكام عامة، لأنها وردت متأثرة بأسباب استثنائية خاصة . فبقيت محصورة في نطاق الحال الذي ظهرت فيه، ولم يجوز أن يمتد لها ذيل من التشريع العام المتجاوز لطبيعة تلك الحال . ومن أبرز قرائن وقائع الأحوال أنها تأتي معارضة لعموم حكم كلي لا شبهة فيه، ومن أجل سبب استثنائي لو نقبت عنه لاكتشفته (راجع الأحكام للآمدي: ٧٠\٢ والمواقفات للشاطبي: ٢٦٠\٣ والمشتفى للغزالي ٦٨\٢ .

ولو كان لتصرفات آحاد الصحابة أو التابعين، مثلاً، قوة لا دليل على حكم شرعي دون حاجة الاعتماد على دليل آخر، لبطل أن يكونوا معرضين للخطأ والعصيان وكانوا مثل رسول الله (ص) معصومين عن الوقوع في أي خطيئة أو أنحراف. ومعلوم بالبداية أن الأنبياء والرسل هم وحدهم المعصومون من الزلل والآثام، وأما من دونهم من الناس فما منهم إلا من رد ورد عليه، وحق عليه قرار الله تعالى: كل بني آدم خطاء.

وبناءً على ذلك فإنما يكون السبيل إلى معرفة حكم الله تعالى في موضوع المرأة، بتلمس قرار كتاب الله تعالى وسنة رسول الله في ذلك، فإذا انتهينا إلى هذا القرار ورأيناه مؤيداً بفهم العلماء العاملين من أئمة الكتاب والسنة فذلك هو الحكم الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يؤثر عليه بنسخ أو تحوير أو تقييد أن نجد أحاداً من الناس يخالفونه، من أي طبقة أو سوية كانوا.

كل ما عدا الوجه والكفين من المرأة عورة:

وقد كانت المرأة في العصر الجاهلي، تحرض على إظهار زينتها أمام الرجال، ولكنها لم تكن تتألم في ذلك كشأن المرأة في الأمم الأخرى.

وقد كان الجيد والنحر وجمة الشعر من أبرز مفاتنها عناية وظهوراً أمام الرجال.

فلما جاء الإسلام، وتنزلت أحكامه الشرعية تنزلاً، نزل في حق المرأة ولباسها قوله تعالى:

(يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين، وكان الله غفوراً رحيماً). ونزل أيضاً في حقها قوله جل جلاله:

(وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون).

ونزل أيضاً خطاباً لنساء النبي (ص)، ولكن بأسلوب يعم سائر النساء المسلمات عن طريق القياس الجلي أو ما يسميه الأصوليون بـ (تنقيح المناط) قوله عز وجل:

(وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقم الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) الأحزاب: ٣٢.

فطبيعة هذه التعاليم، كما ترين، عامة لسائر المسلمات، وليس فيها ما يدعو إلى أن تكون خصوصية لنساء النبي عليه الصلاة والسلام. وإنما جاء الخطاب لهن خاصة، تشريعاً لهن، وإلماً بأنهن أولى النساء بالانصياع لهذه الأوامر والتعليمات.

فقد دلت الآيات بصريح البيان، على أن ذلك التبرج الذي كانت قد تعودت عليه المرأة العربية في جاهليتها، قد أصبح أمراً محظوراً وسلوكاً محرماً، وأن عليها أن لا تكشف من زينتها ومفاتنتها أمام الغرباء إلا ما يظهر منها بطبيعة الحال وتقع في حرج وضيق من محاولة ستره.

وتلاحظين كيف وضع البيان الإلهي هذا الحكم ضمن إطار بارز من الخطورة والاهتمام، عندما عدد أصناف الأقارب والناس الذين يستثنون من عموم هذا الحكم، صنفاً صنفاً، ويتفصيل لا مزيد عليه، مع ما يغلب على الأسلوب القرآني من الاعتماد على الإجمال في بيان معظم الأحكام الشرعية، وترك التفصيل فيه لبيان السنة المطهرة!.

فمن أجل ذلك، أجمع أئمة المسلمين كلهم. لم يشذ عنهم أحد. على أن ما عدا الوجه والكفين من المرأة داخل تحت وجوب الستر، إذ الظاهر الذي قد تتحرج المرأة من ستره، لا يعدو. مهما أردنا التساهل. أن يكون الوجه والكفين على حالة طبيعية لا زينة فيهما..

وقد أمر الله بستر ما عدا الظاهر من جسد ونحر وشعر وغير ذلك بنص قاطع صريح. فلم يقع بين أئمة المسلمين . من ذلك . في أي عصر من العصور خلاف في أنه يحرم على المرأة أن تكشف أمام الأجانب عنها . وهم من عدا الأصناف الذين استثنتهم الآية . شيئاً غير الوجه والكفين من أي جزء من أجزاء جسمها.

تحقيق العلماء في الوجه ذاته:

إلا أن محل البحث والنظر فيما بينهم، إنما كان في أمر الوجه نفسه. وقد أنقسم العلماء في ذلك إلى فريقين: فأما الفريق الأول فقد فسر ما ظهر من الزينة في الآية المذكورة، بزينة الثوب وأطراف الأعضاء وما قد يبدو معها كالأخام ونحوه.. فبقي الوجه والكفان داخلين في عامة ما يحظر كشفه، وعليه فلا يجوز للمرأة أن تكشف حتى وجهها وكفيها أما غير من استثناهم الله تعالى من أصناف الأقارب ومن يلود بهم^[4].

ويستدل اصحاب هذا التفسير، وهم الحنابلة، وبعض الشافعية، على ما ذهبوا إليه بالأدلة التالية:

١. قول الله تعالى: (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) . والآية وإن كانت نازلة في حق نساء النبي (ص)، إلا أن الحكم ليست له أي خصوصية بهن والعلة فيه موجودة في جميع النساء، فالفرق بينهن وبين سائر النساء عن طريق القياس الجلي، وهو ما يسمى أيضاً بالقياس الأولى.

٢. ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها في باب ما يلبس المحرم من الثياب: (لا تلتئم المرأة ولا تتبرقع ولا تلبس ثوباً بورس ولا زعفران) ومثله ما رواه مالك في الموطأ عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: (لا تتنقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين). فما معنى نهى المرأة، عن أن تتبرقع أو تتنقب أثناء الإحرام بالحج، لو لم تكن في عامة أحوالها الأخرى مبرقة؟.

٣. ما رواه البخاري أيضاً عن ابن عباس أن النبي (ص) أردف الفضل بن العباس يوم النحر خلفه . وفيه قصة الخثعمية التي وقفت تسأل رسول الله (ص) . فطفق الفضل ينظر إليها، فأخذ النبي عليه الصلاة والسلام بذقن الفضل فحول وجهه عنها. قالوا: فلولا أن وجهها عورة لا يجوز نظر الرجل الاجنبي إليه، لما فعل رسول الله عليه الصلاة والسلام ذلك بالفضل، أما المرأة ذاتها فقد كان عذرها في كشفه أنها كانت محرمة بالحج.

٤. ما رواه مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ان رسول الله (ص) قال: (إياكم والدخول على النساء) فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمى؟ قال: الحمى الموت. والحمى أخو الزوج وما أشبهه من أقاربه. فلولا ان المرأة بمجموعها عورة بالنسبة للأجانب من الرجال، لما اطلق النبي (ص) النهي عن دخولهم عليهن، إذ النهي يشمل مختلف ما عليه المرأة من حالات، ما دامت بادية الوجه كما هو شأن كل امرأة في بيتها. ولقد انسحب الحكم كما نرى حتى على أخ الزوج فلا يجوز غير عورة لاستثنى . تسهياً للأحماء . أن تكون المرأة ساترة لما عدا الوجه والكفين من أجزاء جسمها.

٥. ما أخرجه عبد الرزاق في مصنفه وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما نزلت آية الحجاب خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان لسترهن وجوههن بفضل أكسيتهن، وإلا لم يتأت تشبيههن بها.

٦. ما أخرجه مسلم وغيره عن أنس بن مالك أن أم سليم صنعت حبساً (نوع من الحلوى) وأرسلت به إلى رسول الله (ص) بمناسبة زواجه من زينب بنت جحش، فدعا رسول الله (ص) أصحابه، وجلسوا يأكلون ويتحدثون ورسول الله جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط إلى أن خرجوا.

والحديث واضح الدلالة على المطلوب. لا يقال: إن هذا قد يكون حكماً خاضعاً بزوجات الرسول عليه الصلاة والسلام. لأن الفرق بين زوجات النبي (ص) وسائر النساء المسلمات، فيما يتعلق بالحجاب، إنما هو فرق زمني فقط ذلك أن مشروعية الحجاب تمت في حق نسائه عليه الصلاة والسلام أولاً، ثم إنها عمت سائر النساء بعد حين.

^[4] انظر تفسير البيضاوي عند تفسير قوله تعالى: (إلا ما ظهر منها) والمغني لابن قدامة ٢٣\٧، ومغني المحتاج في شرح منهاج الطالبين ١٢٨\٣.

وإذا كان وجوه نساء النبي (ص) عورة بالنسبة للجانِب من الرجال . وهن أمهاتهم كما تعلمين . فلان يكون ذلك من بقية النساء عورة أيضاً، من باب أولى.

٧ . ما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق في سبب إجلاء النبي عليه الصلاة والسلام لليهود بني قينقاع عن المدينة، من أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها (ما يجلب إلى السوق للبيع) فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت. فعمد الصائغ فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت. فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت تكشف بعض جسمها فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين فقتله.. الخ. فلولا أن الحجاب الشرعي سابغ للوجه، لم يكن أي دافع إلى أن تسير هذه المرأة في الطريق ساترة وجهها، ولولا أنها قد فعلت ذلك تديناً لما وجد اليهود مال يدفعهم إلى مقايضة شعورها الديني بذلك.

واما الفريق الثاني: فقد فسر (ما ظهر منها) بالوجه والكفين، إذ هما الظاهر الذي قد تتحرج المرأة من استدامة ستره، وهما الظاهر الذي تكشفه المرأة في الصلاة، فينبغي أن يكون الحكم في النظر مثله.

ولكن أصحاب هذا التفسير . وهم المالكية والحنفية وبعض الشافعية^[5] شرطوا الجواز كشف المرأة وجهها أن لا يكون ذلك في حالة تثير الفتنة بأن تكون مزينة أو بارزة الجمال، وأن لا تظهر أما فساق يغلب على الظن أنهم لا يغيضون من أبصارهم كما أمر الله، بل ينفقون لدوافع أهوائهم وشهواتهم. فإن فقد أحد الشرطين كان عليها أن تشتت وجهها درءاً للفتنة بالنسبة للحالة الأولى وإزالة المنكر الذي تسببت به في الحالة الثانية، وإنما يكون إزالة المنكر في مثل هذه الحال بأن تمنع الفساق من النظر إليها، وبأن لا تخرج من بيتها إلى هؤلاء الناس أو بأن تحجب وجهها عنهم، وهو ايسر الأسباب الثلاثة.

وعلى هذا، فإن كل ما ورد من الأحاديث الصحيحة الدالة على الانتقاب، مما قد احتج به الفريق الأول، يفسر بحالة الخوف من الفتنة، أو يفسر بالرغبة في الحيطية والورع. والراجع أن أكثر نساء الصحابة والتابعين فيهن من الورع وحب الحيطية في دين ما يدفعهن إلى الانتقاب.

محل الاجتماع ونتيجة الخلاف:

فقد تحصل من هذا الكلام أن أئمة المسلمين كلهم قد أجمعوا على مايلي:

أولاً . لا يجوز أن تكشف المرأة ، أمام غير الذين استثناهم الله عز وجل، شيئاً أكثر من وجهها وكفيها.

ثانياً . لا يجوز لها أن تكشف الوجه والكفين أيضاً، إذا علمت أن حولها من قد ينظر إليها النظر المحرم الذي نهى الله عنه، بأن يتبع

النظرة النظرة، ولا تستطيع أن تزيل هذا المنكر إلا بحجب وجهها عنه. وعلى هذه الحالة يحمل ما نقله الخطيب الشربيني عن إمام

الحرمين من اتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات الوجه^[6] وقد صرح بهذا القيد القرطبي، فيما نقله عن ابن خويذ منداد من أئمة المالكية: أن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من وجهها وكفيها الفتنة فعليها ستر ذلك^[7].

^[5] أنظر احكام القرآن لأبي بكر بن العربي: ٣\١٣٥٧ وأحكام القرآن للجصاص: ٣\٢٨٩ والدر المختار في باب الحظر والإباحة: ٥\٢٤٤ من

حاشية ان عابدين.

^[6] مغني المحتاج: ٣\١٢٩.

^[7] تفسير القرطبي: ١٢\٢٢٨.

وقال صاحب الدر المختار من الحنفية: وتمنع المرأة الشابة من كشف الوجه بين الرجال، لا لأنه عورة، بل لخوف الفتنة، ولا يجوز النظر إليه بشهوة^[8].

وهكذا، فقد ثبت الإجماع عند جميع الأئمة (سواء من يرى منهم أن وجه المرأة عورة كالحنابلة ومن يرى منهم أنه غير عورة كالحنفية والمالكية) أنه يجب على المرأة أن تستر وجهها عند خوف الفتنة بأن كان من حولها من ينظر إليها بشهوة. ومن ذا الذي يستطيع أن يزعم بأن الفتنة مأمونة اليوم، وأنه لا يوجد في الشوارع من ينظر إلى وجوه النساء بشهوة؟ ثالثاً: اتفقوا على جواز كشف المرأة وجهها، ترخساً، لضرورة تعلم أو تطيب أو عند أداء شهادة أو تعامل من شأنه أن يستوجب الشهادة.

فهذه النقاط الثلاث محل إجماع لدى الأئمة وعامة الفقهاء.

ثم إنهم اختلفوا فيما وراء هذه الأحوال، وهو أن تكون المرأة بادية الوجه في مجتمع عام وليس ثمة من يعتمد النظر إليها بريئة. وهذا فرض وهمي اليوم. فقد ذهب البعض، كما رأينا، إلى أنه لا حرج عليها في ذلك، وذهب آخرون إلى أنه يجب عليها أن تستر وجهها مطلقاً.

هذا هو حكم الإسلام في لباس المرأة. اتفقت عليه كلمة علماء المسلمين كلهم، معتمدين في ذلك على نصوص واضحة صريحة في كتاب الله تعالى، وأحاديث ثابتة صحيحة من سنة رسوله عليه الصلاة والسلام. فإذا عثرنا بعد ذلك على وقائع وتصرفات فردية لبعض نساء الصحابة أو التابعين أو غيرهم، تخالف هذا الذي اجمع عليه الأئمة مما دل عليه صريح الكتاب والسنة، فإنها وقائع محجوبة بالحكم المبرم الذي دل عليه إجماع الأئمة وصريح الكتاب والسنة، وحاشا أن يكون حكم الله هو المحجوج بها. وإذا تبين لك هذا، فلتعلمي أن مصادر الشريعة الإسلامية لا تحدد شكلاً أو نوعاً من اللباس الذي يجب أن تلبسه المرأة. وإنما المطلوب أن يكون سابغاً لجسمها، لا يبرز شيئاً من مفاتنه ولا يحكي أن جزء من أجزائه، وكمال الثوب طويلاً أن يصل إلى الكعبين، فإن ارتفع عنه كره وإن كان القدمان مستورين بجورب سميك.

عملها وتعلمها:

أما أن تباشر المرأة عملاً ما، تستدر به الرزق لنفسها أو لأسرتها، أو أن تعكف على علم من العلوم المفيدة تدرسه وتتعلمه. فليس للإسلام فيه إلا الحكم العام الذي يشمل المرأة والرجل على السواء. فإن عثرت على حالة ينهي فيها الإسلام المرأة عن أن تعمل خارج بيتها أو تتعلم، فذلك لما قد يصحبه من ارتكاب لبعض المحاذير، كأن لا تلتزم أحكام الستر والاحتجاب عن الأجانب من الرجال على النحو الذي أوضحناه، أو كأن يكون عملها يستلزم قطعه أو تضيق سبيل الاكتساب على الرجال، فيترتب على ذلك نشوء اضطراب في نظام المسؤوليات المنوطة بالرجال بالنسبة لقضايا الأسرة خاصة والمجتمع الإسلامي عامة.

والمسألة في ذلك محكومة بالقاعدة الأصولية المعروفة: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما يترتب عليه محرم فهو محرم). فالعمل مهما كان شريفاً، يغدو غير شريف، إذا استدعى من المرأة أن تخرج عن سلطان سترها، وأن تتبرج أمام الأجانب من الرجال. بل هو محرم بالنسبة لكل من الرجل والمرأة معاً، إذ هو كما يلتزم من المرأة الوقوع في إثم التبرج أمام الرجل، فهو يستلزم من الرجل الوقوع في إثم مخالطتهن ودوام النظر إليهن، والتعرض للأفتتان بهن.

^[8] الدر المختار على هامش ابن عابدين: ٢٨٤\١.

والعمل مهما كان مباحاً في أصله، يغدو بالنسبة للمرأة غير مباح، إذا تبين أنه يخلق اضطراباً في نظام المسؤوليات الاجتماعية التي وزعها الإسلام بين الرجال والنساء.

وبيان ذلك ان الشارع جل جلاله نظم اللقاء الجنسي بين الرجل والمرأة عن طريق إخضاعه لضوابط الزواج وتنظيماته الشرعية. ولا يمكن أن يتحقق هذا النظام إلا بإيجاد وضع يجعل من أحد الجنسين غاية مطلوبة فقط ويجعل الجنس الآخر طالباً لتلك الغاية ساعياً وراءها.

فمن خلال هذا الوضع يمكن فرض النظام المذكور، وإقامته جسراً وحيداً لا بد من عبوره والخضوع لكل ما فيه من ضوابط وحدود، بحيث لا يصل الباحث إلى غايته من الجنس الآخر إلا من هذا الطريق وحده. فأيهما ينبغي أن يكون المطلوب.. الرجل أم المرأة؟

إن الوضع السليم الذي يضمن تحقيق النظام المذكور، محصور في أن تكون المرأة هي المطلوبة دائماً وأن يكون الرجل هو الطالب لها والساعي وراءها.

ذلك لأن المرأة إذا كانت في وضع يجعلها هي الساعية للبحث عن زوج لها، فقدت بذلك اخص سماتها الفطرية التي تتعلق بالجنس. فقد أقام الله تعالى كونها النفسي والجسمي على نحو يجعلها متعة للرجل أكثر من أن يكون الرجل متعة لها، بل جعل سعادتها في شعورها بأنها كذلك وبأن الرجل منساق للخضوع لهذه المزية التي فيها. ولذلك كان الشأن في عبارات التودد والاستعطاف أن تأتي . في أعم الأحوال من جانب الرجل، وان تكون من المرأة تجاه ذلك دلال لا يصرف، وتأثر لا يترامى أو يتهاك.

هذا شيء.. ولا شيء الثاني أن ضوابط التنظيم المذكورة تفقد سلطانتها، بل وجودها، إذا وجد الرجل أن المرأة هي التي تسعى إليه وتتعرض له هنا وهناك. فأمر يدعوه إلى أن يلتزم تجاهها بالشروط والقيود الشرعية التي المحنا إليها، وهي تسعى إليه بالعرض والرجاء..؟ ومتى كان قانون العرض والطلب متفقاً مع هذا المنطق المقلوب؟!..

في أكثر أنحاء أوربا نشأت أوضاع فرضت على المرأة أن تكون هي الطالبة للزوج والباحثة عنه في كثير من الأحيان فما الذي ترتب على ذلك؟

من السهولة بمكان أن تعلمي الجواب، عندما تعلمين كم تسقط المرأة هناك من سقطة ويلهو بها من رجل، ريثما تعثر على الزوج الذي هو الزوج الحقيقي!..

الذي ترتب على ذلك ، أن الرجال نظروا، فوجدوا فرص المتعة الخلفية الميسورة قد كثرت أمامهم، بفضل بحث النساء عن أزواج لهن في المجتمع. وأعجبهم الوضع.. فازدادوا تثاقلاً وزهداً في الزواج، لتزداد النساء بحثاً عنهم وسعيّاً وراءهم. وهكذا كان سعي المرأة في البحث عن الزوج، أهم سبب من أسباب فقدها له!..

وانتشرت موجة الإباحية لعدة عوامل، ولكن هذا العامل أهم واحد فيها. وتفسخت الأسرة وتهاوت أركانها لعدة عوامل ولكن ما من شك أن هذا العامل أخطر واحد فيها، وفقدت المرأة هناك سعادتها، إذ فقدت أجمل وأعلى أحلامها، وهو الانضواء في عش زواج هانئ سعيد لعدة أسباب، ولكن ما من ريب أن هذا السبب كان في مقدمتها. إذاً، ما من ريب أن ضبط اللقاء الجنسي بين الرجل والمرأة بنظام الزواج الشرعي، لا يتم إلا في أوضاع تفرض على الرجل أن يكون هو الطالي للزوجة، وتفرض على المرأة أن تكون هي المطلوبة. فما هي الأوضاع التي تضمن تطبيق هذا الغرض؟..

ليس ثمة أي ضمانة لذلك إلا بواسطة تطبيق سياسة الشريعة الإسلامية في نظام الإنفاق!.. فالرجل هو المسؤول عن نفقة المرأة سواء كان والدها أو زوجها أو أي قريب آخر لها. والمرأة تأخذ مهرها كاملاً من الزوج نحلة كما أمر الله عز وجل، وليس للزوج أن يفرض عليها أي تعاون أو شركة فيه، فضلاً عن أن يحملها . بطريقة ما . على أن تتقدم هي إليه بالمهر . ونتيجة لذلك كان نصيب الرجل من الميراث ضعف نصيب المرأة منه، لأن نصف نصيب الرجل من ذلك، أو أكثر، يقطع منه تحت سلطان هذا النظام الإلهي، ليضاف إلى نصيب المرأة.

وأثر هذا التنظيم المالي في حراسة المبدأ المذكور واضح جداً.

فإن الشأن . في المسلمات الاقتصادية . أن الذي يطالب الآخر بشيء، يقر بحاجته إليه، وهذا الإقرار يعتبر حجة للآخر في أن يطالبه بالأجر أو القيمة. ومعنى ذلك أن الطالب للشيء هو الذي يبذل الثمن.

فإذا علم كل من المرأة والرجل أن الثاني هو المطالب بنفقات الزواج من مهر وإنفاق، لم يكن للمرأة من سبيل عندئذ للتقدم والطلب، لأن طلبها يعني . حينئذ . إعلان حاجتها إلى الزوج ومهره معاً، وهو وضع معكوس في ميزان تبادل المنافع وقانون العرض والطلب. وهكذا ينحصر السعي المادي لإقامة ركن الزوجية في الرجل فقط، وعندئذ يسهل حصره في سبيل الضوابط الشرعية التي ألمحنا إليها. أما إذا اصطالح المجتمع على أن تكون نفقات الزواج من مهر وغيره شركة بين الزوجين أو حقاً على الزوجة وحدها كما هو الحال في بعض جهات أوربا، فإن الأمر عندئذ ينعكس بالتدريج: يتناقل الرجل عن المبادرة إلى الزواج، ويخفي رغبته في ذلك، طمعاً في عروض أفضل!.

وتزداد المنافسة بالمقابل من الطرف الآخر، إذ كان سبيل الفوز بالزوج هو الغنى الأوفر والعروض الأفضل، ثم تتوالد بعد ذلك النتائج السيئة الأخرى^[9].

وكأنني بك تسعجلين قائلة: لقد ابتعدنا كثيراً عن أصل البحث، وإنما كان أصل الكلام في أن عمل المرأة مهما كان مباحاً في ذاته فإنه يغدو محرماً إذا كان من شأنه أن يخلق اضطراباً في ميزان المسؤوليات الاجتماعية الموزعة بين الرجل والمرأة. فما علاقة هذا الحديث الطويل كله بعمل المرأة؟. وأين هو أثر عملها في خلق الاضطراب المذكور؟

ونقول: إن نتيجة حديثنا الطويل الذي أيقنا فيه بأن المرأة ينبغي أن تظل مطلوبة فقط وأن الرجل يجب أن يكون هو الطالب لها، وأن ضمان ذلك لا يكون إلا بأن يكون الرجل هو الباذل والمنفق . نتيجة هذا الحديث هو أن نتساءل: فكيف السبيل إلى أن ظل الرجل هو المتحمل لعبء هذه النفقات، وإلى أن لا تستدرج المرأة إلى مشاركة الرجل فيه أو أن لاتقوم في ذلك مقامه؟

والجواب: إن الضمانة الكبرى لبقاء الأمور على نهجها السوي. هي أن لاتنتزل المرأة إلى ميدان العمل من أجل الرزق إلا في اضيق الظروف والحالات الضرورية.

لأن المرأة عندما تشترك مع الرجل وتتافسه في تربية المال وجمعه، إنما تضيق من سبيل ذلك على الرجل بلا شك. فتضطرب بذلك الصلة بين التزاماته المادية ومجالاته الكسبية، بسبب ضيق هذه الثانية وبقاء الأولى على ما هي عليه، فتتولد من ذلك مشكلة بل معضلة، سرعان ما يبدو لأرباب النظر السطحي أن لا حل لها سوى جعل المرأة شريكة مع الرجل في غرم النفقات كما أصبحت شريكة له في غنيمة الكسب!.

وإذاً فإن اشتراك المرأة مع الرجل في الكسب المطلق (أي دون تقييد بحالات الضرورة) هو أهم الدوافع إلى اشتراكهما معه في نفقات الزواج، وهو بالتالي أهم الدوافع إلى أن يتحول الأمر عن سبيله الطبيعي، فتصبح المرأة (بالتدرج) هي الباحثة عن الزوج والمبادرة إلى طلبه.

وعندئذ فقط ستفقه، لتجد في مكانه خليل اليوم واليومين، بل صاحب الساعة والساعتين!..

ونتيجة لهذا كله نقول: إن عمل المرأة في أكتساب الرزق يعد في جوهره من المباحات التي لا فرق فيها بين الرجل والمرأة. ولكنه يكتسب بعد ذلك حكم الحرمة إذا ترتب عليه محرم. وإنما يترتب عليه ذلك من أحد وجهين: الأول: أن تفقد المرأة بذلك قدرتها على الاحتجاج عن الرجال على النحو الذي أمر الله تعالى به، وتشيع بينها وبينهم الخلطة الفاحشة.

^[9] لسنا نقصد بهذا، التحذير عن أي تعامل مادي، يقوم بين الزوجين . في سبيل حياة رغيدة لهما، بل نقول: إن التعامل مكرمة تدعو إليها الشريعة الإسلامية وتحبذها، ولكنها تدعو إليها في النطاق الأخلاقي وفي حدود الرغبة الشخصية التي تم بعد توفر المحبة والتآلف بين الزوجين، لا على الصعيد القانوني الملزم، وفيما بين شخصين ليس بينهما من الصلة إلا فكرة الاستفادة والانتفاع.

الثاني: أن يتسبب عن ذلك الاضطراب الذي شرحناه فيختل بذلك الميزان الشرعي الذي يسير عليه قانون الزواج، فتتشأ عنه المخاطر المخفية التي ألمحنا إليها. فعند ذلك ينقلب المباح إلى محرم لا مرية فيهن إذ الأمور بنتائجها القريبة أو البعيدة لا بأشكالها وصورها الجامعة.

شُبْهٌ عِلْمِيَّةٌ مُصْطَنَعَةٌ

إن فيما أوضحته لك من حكم الله تعالى في لباس المرأة تعلمها وعملها. مقروناً بالأدلة الواضحة التي لا مجال فيها للبس ولا تأويل . لكفاية وبلاغاً، لمن صدق الله عز وجل في طلب معرفة حكمه، وصدق مع نفسه ومع الناس في الإيمان بأن القرآن كلام الله عز وجل وأن محمداً نبيه لمرسل إلى العالم كله بشيراً ونذيراً. أما من كان على شعبة من النفاق في إيمانه بالله ، أو في طلب معرفة حكمه، أو في السعي لنيل مرضاته، فإنه يستطيع أن يقحم في كل سطر مما ذكرناه شبهة وإشكالاً، ويستطيع أن يستثير من بطون كتاب الله ومن منشور سنته ما قد يتعلق به في إثبات عكس ما قلناه، وإن كان يعلم عند نفسه أنه كاذب في ذلك!..

وصناعة التأويل في الكلام والتلاعب بالألفاظ ليست عسيرة، أتقنها بنو إسرائيل من قبل لنيل عرض من الدنيا قليل، ويتقنها كثير من المحامين اليوم لدمع مزيد من البضاعة نفسها، كما يتقنها كثير من المشتغلين ببضاعة العلم الشرعي، ليتجملوا بذلك أمام من يملكون . في الظاهر . رعايتهم ودفعهم في سلم المناصب الدنيوية الفانية. يقول الإمام الشاطبي في كتابه (الموافقات) بعد أن استعرض صوراً ونماذج من حيل المطلين في التلاعب بنصوص الأدلة والتحايل على قواعد الأحكام:

(ولذلك لا تجد فرقة من الفرق الضالة، ولا أحداً من المختلفين في الاحكام يعجز عن الاستدلال على مذهبه بظواهر من الأدلة، وقد مر من ذلك أمثلة، بل قد شاهدنا ورأينا من الفساق من يستدل على مسائل الفسق بأدلة ينسبها إلى الشريعة المنزهة، وفي كتب التواريخ والأخبار من ذلك طرف ما أشنعها في الاقتتات على الشريعة، وانظر في مسألة التداي من الخمار^{١٠} [10] في درة الغوص للحريري وأشباهها، بل قد أستدل بعض النصاري على صحة ما هم عليه الآن بالقرآن ، ثم تخيل فاستدل على أنهم مع ذلك كالمسلمين في التوحيد، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. فهذا كله يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به فهو أحرى بالصواب، وأقوم في العلم والعمل^{١١} [11].

^{١٠} [10] حاصل المسألة أن حامد بن عباس (وزير المقتدر العباسي) سأل علي بن عيسى في ديوان الوزارة عن دواء الخمار وكان علق به، فأعرض عنه، فسأل قاضي القضاة أبا عمرو فقال: قال الله تعالى (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال النبي عليه الصلاة والسلام: (استعينوا في الصناعات بأهلها) والأعشى هو المشهور بهذه الصناعة في الجاهلية وقد قال:

وكأس شربت على لذة*** وأخرة تداويت منا بها

ثم تلاه أبو نواس في الاسلام فقال:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء*** ودواوني بالتي كانت هي الداء

فاسفر وجه حامد بالجواب ، والتفت إلى علي بن عيسى قائلاً:

ما ضرك لو أجبت كما أجاب قاضي القضاة وقد استظهر بالآية والحديث!؟ ولا ريب أن هذا مجنون ديني من قاضي القضاة شأنه شأن المجون الذي يصدر عادة عن كثير من أمثاله من الفساق والمستهترين.

^{١١} [11] الموافقات للشاطبي: ٧٦/٣ و٧٧.

ولكن ليس معنى هذا الذي نقوله، أن الطالب لمعرفة الحق يضيع بين تلبيس المخادعين ونصيحة العلماء الصادقين، فإن الصادق في طلب الحق لا يعدم أن يجد دلائل الحق في محكمات النصوص الواضحة النيرة، فإن تاه عن معرفة هذه النصوص لم يعدم أن يجد دلائله فيما أجمع عليه السلف الصالح خلال القرون الماضية، فإن لم يعلم شيئاً عن أخبار السلف، لم يعدم أن يجد دلائله في الاستقامة العلم الذي يفتيه وحسن سيره وسيرته بين الناس وثباته أمام مزالق الفتن والأهواء. فإن عدم من حقائق إسلامه ما يبصره بشيء من هذا كله، فإن بلاءه من نفسه قبل أن يكون من مكيدة المخادعين أو مكر المضلين. إذ لا يكون المسلم مسلماً حقاً إلا بعد أن يكون على شيء من البصيرة بدينه بحيث تشير له . ولو من بعد . إلى معالم الحق، وتحذره . ولو في الجملة . من مهاوي الضلال. وهو مكلف باكتساب هذا القدر من البصيرة الإسلامية، إذا كان حقاً يريد لنفسه الإسلام والخضوع من خلاله لحكم الله. وإذا كان هذا هو واجب كل مسلم يمر فوق قنطرة هذه الحياة، فإن واجب من استودع الله لديهم شيئاً من خصائص العلم أو طاقة التنبيه والبيان ممن يبايعون الله على الصدق معه والنصيحة لدينه، أن يعينوا عامة المسلمين على استحصال هذه البصيرة الإسلامية العامة، وأن يكشفوا لهم عن زغب العلم ومكائد المضللين كما انتصب أمامهم شيء من ذلك على الطريق.

أجل، إن على شتى فئات المسلمين وطبقاتهم أن يتعاونوا لمعرفة الحق، وأن يأخذوا بعضهم بحجز بعض اتقاء الانزلاق في غضب الله والانحراف إلى شباك الشياطين فبذلك ين عزل المضللون وتتحرى مكائدهم فلا ينخدع بها أحد.

وما أحسب أن ثمة موضوعاً يلقي فيه المضللون بكل ثقلهم، ابتغاء تلبيس الحق بالباطل وتضييع معالم الحكم الإلهي فيه، أخطر وأهم من موضوع المرأة، وما رأيت مجلة من المجلات أو صحيفة من الصحف التي لا شأن لها بالإسلام من قريب أو بعيد، إلا وتلبس مسوح الدين وتتربع على أريكة الإرشاد الديني عندما يتقدم إليها من جاء يحمل لها شبهة فيما يتعلق بشأن المرأة النقطتها من بعض كتب التاريخ أو أختلقها اختلاقاً من بعض مصادر التشريع، حيث تنشره باسم الدين وهدية في صفحاتها الأولى، حتى إذا جاء من ينبهها إلى أنها شبهة ملفقة أو أكذوبة مدبرة، أسرع فخلعت مسوحها وركلت منبر الإرشاد الديني بقدمها ونسيت تبجيلها المصطنع للرسول إذا كانت تنسب إليه الأضاليل، وتصامت وتعامت عن تذكرة الحق بعدما اتخذت من نفسها مطية ذلولاً لملك^{١٢} يد باطلة صلاء.

فما هي هذه الشبه؟

^{١٢} [12] تلقت مجلة العربي، فيما نعلم، عشرات الأبحاث والكلمات، مختصرة ومطولة، كلها تعقيب على مقال للشيخ أحمد حسن الباقوري الذي أوهم الناس في تلك المجلة إباحة اختلاط النساء بالرجال على نحو ما يتم في مجتمعنا اليوم، والكثير من هذه الكلمات يتسم بالموضوعية واللفظ والابتعاد عن التحريج الشخصي. ولكن كبير القائمين على هذه المجلة رفض أن يدرك قيمة شرف الكلمة وحرية الفكر، فأصم أذنيه وأعمى عينيه عن جميعها. فعل ذلك حرصاً منه على الخديعة التي طرحها الباقوري بين الناس أن لا تنكشف فيظهر الحق الأبلج من ورائها!

والشيء الذي غاب عن كبير القائمين على هذه المجلة، أن الناس رجالان: رجل منحط في شهواته وإباحيته، فهو لا ينتظر فتوى الباقوري ولا إذاعة (العربي) لها، وآخر أسلم وجهه لله فهو حريص . ما أمكنه الأمر . على السير في سبيل مرضاة ربه، فهو لا يمكن أن يولي وجهه شطر (العربي) أو الباقوري ليأخذ حكم الله منهما.

لقد رحب الرجل بمنطق التمويه فأطلقه بين آلاف الناس، وضاق ذرعاً بصوت الحق فأجهد نفسه في خنقه واطراحه، ولكن لا التمويه عاش تمويهاً ولا الحق ما مختنقاً.

مئات الناس في كل بلد مسلم أوسعوا التمويه صفعاً وتجريداً بمنطق الأمانة والعلم، حتى تعرى فوق منبره ومات، ثم اجتمعوا على الحق إعلاء وإبانة وتصعيداً، حتى عاد أقوى مما كان في النفوس وأوضح مما كان في العقول.

والخسارة، إنما هي خسارة ذي شبيبة تذكره بالموت الذي يكمن وراء أذنه والرب الذي يرقب دقائق انفاسه، ولكن لغو الدنيا لا يكاد يدعه يصحو إلى شيء!.

إنني سأستعرضها معك أيتها الأخت المسلمة. فإن في معرفتها على حقيقتها ما يزيد إيمانك بالحق الإلهي الذي أوضحناه، وما يزيدك حذراً من كيد المضللين وأكاذيب المؤتفكين، وإن في ذلك أيضاً ما نغنيك ببصيرة فقهية ثاقبة تميز لك الحق عن الباطل حتى وإن جاء هذا الثاني . في بعض الأحيان . مقنعاً بشارات الدين ورسومه.

الشبهة الأولى: حديث تعلق به بعضهم لإثبات أن المرأة لها أن تختلط بالأجانب عنها من الرجال كما تشاء ودون أن تتكلف لذلك أي ستر أو احتجاب. وهو ما رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه أن جارا لرسول الله (ص) فارسياً كان طيب المرق (كناية عن طيب الطعام) فصنع لرسول الله (ص)، ثم جاء يدعوه. فقال: وهذه؟ .. لعائشة، فقال: لا، فقال رسول الله (ص) لا، ثم عاد يدعوه، فقال رسول الله (ص)، وهذه؟ قال نعم في الثالثة، فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله.

فهذا الحديث لا يدل مما نحن فيه على أكثر من شيء واحد، وهو أن رسول الله (ص) اصطحب عائشة معه إلى بيت الرجل الفارسي، وهو كما دلت أحاديث كثيرة أخرى على اصطحاب الصحابة نسائهم إلى المساجد، وكما دلت أحاديث أخرى على زيارة كثير من الصحابة لأمهات المؤمنين عامة وعائشة رضي الله عنها خاصة، من أجل رواية الحديث أو أخذ الفتوى أو السؤال عن بعض أحوال النبي عليه الصلاة والسلام. فأى تعارض ترين بين هذه الدلالة التي لا إشكال فيها ولا نزاع، والحكم الإلهي القاضي باحتجاب المرأة عن الرجال والأمر لهم إذا جاءوا يسألونهن حاجة أن يسألوهن من وراء حجاب!.

أما أن يرفض رسول الله (ص) لا لاستجابة لدعوة الفارسي إلا أن تصحبه عائشة رضي الله عنها، فشيء ثابت لا إشكال فيه ولا منقصة. بل إن فيه الصورة البارزة الحية لجميل خلقه (ص) مع أهله وعظيم رحمته وعاطفته تجاهها.

فقد كانت تمر الأيام الطويلة المتتالية ولا يستوقد في بيت رسول الله نار لطعام، وإنما طعامه عليه الصلاة والسلام وطعام أهله . كما تروي عائشة . الأسودان: التمر والماء، أفترك رسول الله (ص) أهله . وهي إنما ترضى بالشطف أسوة به . ليجلس من ورائها إلى مائجة شهية عامرة عند جاره الفارسي؟! .. ما كان خلق رسول الله (ص) ليرضى بذلك! .. وما رضي ذلك أيضاً عندما دعاه جابر . وقد كان الجوع يمتص أحشاءه وأحشاء سائر أصحابه عند حفر الخندق . إلى عناق صغيرة لا يملؤ قصعة ثريد، حتى استاق أمامه كافة أصحابه، فقدمهم على نفسه، وثرذ اللحم أمامهم بيده، واتخذ مكانه، خادماً لهم، خلف قدر الطعام، لا يرضى أن يأكل حتى يستوثق أنهم قد شبعوا، وإن الحجر لمعصوب من الجوع على بطنه!..

وأما أن يكون في ذلك ما يدل على أن عائشة رضي الله عنها ذهبت مع رسول الله متبرجة، وجلست أمام الفارسي سافرة واختلطت (العائلات) على نحو ما يتم اليوم في الأسر الإسلامية التي لا سلطان لدين الله على حياتها . فهو شيء لا سبيل في الحديث لأي دلالة عليه. وحمل الحديث على هذا المعنى كحمل الشرق على أن يولد من داخله الغرب!..

إن الذي يفسر الكيفية التي ذهبت عليها عائشة مع رسول الله (ص) إذ ذاك ، إنما هو قول الله عز وجل:

(ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) وقوله جل جلاله: (وإذا سألتهم متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) وقوله تعالى: (ولا يبدين زينتهن إلا لآبائهن أو آباء بعولتهن..) الآية..

والذي يفسر ويشرح هذه الكيفية أيضاً هو الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أم سليم صنعت حيساً (نوع من الحلوى) وأرسلت به إلى رسول الله (ص) بمناسبة زواجه من زينب بنت جحش، فدعا رسول الله (ص) أصحابه، وجلسوا يأكلون ويتحدثون ورسول الله (ص) جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط أن خرجوا.

ومن العبث العجيب بدين الله تعالى أن نتعاضد عن هذه النصوص التي تشرح لنا الحالة التي ذهبت عليها عائشة مع النبي عليه الصلاة والسلام إلى دار الجار الفارسي، لنعتمد في شرحها على خيال من يتخيل أنها إنما ذهبت كما تذهب بنت الحضارة الغربية اليوم: متزينة متبرجة متعطرة!..

ثم نجعل من هذا الخيال حجة دامغة، ثم نبني عليها شريعة ثابتة، ثم ننسخ بها كافة النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي استعرضناها معاً قبل قليل!.

فتلك هي قصة الشبهة الأولى. وما هي بشبهة ولكنها تضليل رخيص.

الشبهة الثانية: ما رواه البخاري عن سهل، قال: لما عرس^{١٣} أبو أسيد الساعدي دعا النبي (ص) وأصحابه. فما صنع لهم طعاماً ولا قربه إليهم إلا أمراته أم أسيد، بليت تمرات في تور (إناء) من حجارة، من الليل، فلما فرغ النبي (ص) من الطعام أمأته أي (هرسته بيدها) فبقته، تتحفه بذلك.

فلقد تعلق بهذا الحديث أيضاً من انتهى أن لا يكون على المرأة من حرج في أن تستقبل الضيوف من أصدقاء زوجها أو أهلها فتخدمهم بنفسها وتقدم لهم الضيافة والشراب بيدها وتجالسهم للتفكه والحديث، على نحو ما هو واقع في كثير من البيوتات التي انحسرت عنها ظلال الفضيلة وسلطان الدين.

وأنت علمين أن المنكر في الأمر ليس عبارة عن تقديم المرأة فنجان القهوة إلى الضيوف، وإنما المنكر ما قد يصاحب ذلك من العري والزينة اللتين تظهر المرأة بهما، وليس الشأن فيما تعارف عليه الناس اليوم في تقديم فنجان القهوة، وإنما الشأن كل الشأن في المظهر الخلاب الذي تتقدم به المرأة مع فنجان القهوة.

ولقد علم الفقهاء وعلماء المسلمين جميعاً، أنه لاضير في أن تتقدم المرأة بسترها الإسلامي الكامل الذي شرحنا حدوده فبقدم إلى ضيوف في دارها طعاماً أو شراباً تكرمهم به، وزوجها أو قريبها جالس.

وهذا هو الذي وقع من امرأة أبي أسيد في حفل عرسه. فقد قال أبن حجر عند شرح هذا الحديث: ولا يخفى أن محل ذلك عند أمن الفتنة ومراعاة ما يجب عليها من الستر^{١٤}.

وليس كثيراً في حفل يحضره رسول الله (ص)، أن تكرم العروس مقدم رسول الله (ص)، فتتولى بنفسها إكرام رسول الله (ص) وتقديم الضيافة إليه. وليس في ذلك ما يشينها، كما أنه ليس فيه ما يلصق به عليه الصلاة والسلام أي منقصة.

إنما الشيء واقع، فيما لو عثر المتعلق بهذا الحديث على أنها برزت أمام الرجال سافرة بادية الجسم والزينة، وهذا ما لا يمكن أن يعثر عليه، وما لادليل له في الحديث.

لقد ظهر الكثير من نساء الصحابة في صفوف القتال يضمذن الجرحى ويسقين العطاش، ومنهن أم سليم رضي الله عنها، فمن قال إن ذلك دليل إذاً على أن المرأة لا حرج عليها في أن تختلط بالرجال كما تشاء وأن تنزبن أمامهم كما تريد. بل لقد قال كثير من الفقهاء إن للمرأة أن تتولى منصب القضاء فيما يحق لها الشهادة فيه، وقالوا إن لها أن تتولى منصب الفتوى. فمنذا الذي يستطيع أن يزعم. اعتماداً على أثارة من علم. بأن للمرأة إذاً أن تتحرر من قيد الستر والحجاب، وأن تأخذ حظها من متعة الزينة والمظهر أمام من تشاء؟.

قامت العروس بنفسها، تقدم الشراب إلى رسول الله. إذاً فللمرأة أن تعرض زينتها ومفانيتها أمام الرجال.. هل هذا إلا كمن يقول: لقد شرع الله التجارة بالمال والسعي في الأرض من أجل الرزق، إذاً فللتاجر أن يراي ويغش، وأن يخدع ويغبن.. ومنذا الذي عرف الإسلام ثم لم يعرف أنه قد جمع للناس أطراف المصالح كلها عندما شرع لهم السبل إليها، صافية من كدورات الشر، خالية من بواعث الفساد مكلوثة بقيود التحذير من الانحراف؟

هل يريد صاحب هذه الشبهة من الشارع الحكيم جل جلاله، أن يجعل من المرأة رجساً لا تسير في طريق، ولا تعالج مشكلة، ولا تتعاون مع الرجل في أمر، وعندئذ فقط يفهم معنى قوله: ولا يبيدين زينتهن؟.. إذاً فأين هو من أبرز مزية عظمى للإسلام، إذ تناول من شؤون الناس وأحواله كل ما فيه مصلحة حقيقية لدين أو حياة أو عقل أو نسل أو مال، فشرعه وندب إليه، وشذب عنه كل ما قد علق أو اتصل به من أسباب الشر والفساد، دون أن يترك سبيلاً لتأثير أحدهما على الآخر، إذا أمكن الفصل بينهما وتيسر للإنسان أن يختار منهما ما يشاء؟. إنها ليست شبهة تحتاج إلى بحث، ولكنها. كما ترين. شبكة صياد لا تحتاجين معها إلا إلى حذر واتقاء.

^{١٣} [13] قال في انفتح: كذا وقع بتشديد الراء، وقد أنكره الجوهري، فقال: أعرس، ولا تقل عرس.

^{١٤} [14] فتح الباري: ٢٠٠/٩.

الشبهة الثالثة: أن في شهيرات نساء الإسلام، على اختلاف طبقاتهن، كثيراً ممن لم يضربن على وجوههن الحجاب، على أرغم مما عرفن به، من شدة الاختلاط بالرجال.

ولقد عمد المروجون لهذه الشبهة إلى التاريخ وكتب التراجم، ينقبون فيهما، بحثاً عن مثل هؤلاء النساء، حيث النقطوا أسماء عدد من النساء لم يكن يبالين . فيما نقلته الأخبار عنهن . أن يظهرن سافرات أمام الرجال، وأن يلتقين معهم في ندوات علمية وأدبية دون أي تحرز أو تحرج. فذكروا منهن عائشة بنت طلحة التي لم تكن تستر وجهها عن أحد مطلقاً، والسيدة سكينة بنت الحسين التي كان لها مجلسها وندوتها الأدبية التي كان يلتقي فيها صفوة الأدباء والشعراء، وهند النعمان بن بشير التي كانت تبرز في كثير من المناسبات أما الرجال سافرة الوجه، والسيدة زوجة عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، والسيدة خرقاء العامرية وفاطمة بنتها اللتان كان لهما مجلسهما المشهود اثناء موسم الحج، حتى أحباها ذو الرمة وانشد فيها من عيون روائعه الشعرية، وولادة عشيقه ابن زيدون الذي كان يغشى منتداها الأدبي المشهور.

بأخبار مثل هؤلاء النساء، أحتج صاحب هذه الشبهة على أن الشريعة الإسلامية لم تقيد المرأة بأي ستر أو أحتجاب ولم تمنعها من أن تخالط الرجال في مجالسهم وأنديتهم دون أي فارق بينها وبينهم.

فأي مصدر من مصادر الشريعة يعد مثل هذه الأخبار؟.. أي كتاب ، أم سنة ، أم إجماع، أم قياس.. وما علمنا وراء هذه المصادر الأربعة دليلاً يثبت به تشريع ..!

وإذا كانت تراجم أحاد الناس وأحوالهم دليلاً شرعياً متبعاً، فما لنا لا نقول بجل شرب الخمر وقد وجد في الصحابة والتابعين وخلفاء المسلمين من شربها؟.. بل ما لنا لا نقول بجل الفاحشة وقد وجد في الصحابة والتابعين ومن بعدهم من قد أرتكبها؟..

وما لنا نرد ما قاله رسول الله (ص) : كل بني آدم خطاء، إذا كنا نعد اخطاء بني آدم حجة وتشريعاً؟.

إن من بديهيات الإسلام أن تصرفات أحد من الناس لا تعتبر دليل تشريع إلا أن يكون رسولاً أوحى إليه بشرع من الله عز وجل، فإن كلاً من أعماله وأقواله وصفاته وإقراره يعتبر مصدر تشريع، فهل كان هؤلاء النساء اللاتي النقط صاحب الشبهة أخبارهن، رسولات من الله إلى الناس؟

ومهما يكن من شأنهن في نظر صاحب الشبهة، فقد كان إلى جانب كل منهن سواد عظيم من النساء المتحجبات الساترات لزينتهن عن سائر الأجانب من الرجال. فلماذا لا يكون حال هذه الجمهرة العظيمة هي الحجة في هذا الشأن بدلاً من حال أولئك القلة اللاتي جمعهن صاحب الشبهة من شتى الطبقات والعصور؟

أجل.. لقد كانت عائشة بنت طلحة تأبى أن تحجب وجهها، وقد كان زوجها مصعب بن الزبير يلومها على ذلك بين الحين والآخر . وإنما لنرى في إنكار مصعب عليها من الدليل على الحق الذي نقول، أضعاف ما في تصرفها من الدليل على الباطل الذي يروجون له. ولقد كانت فاطمة العامرية أيضاً . كما قالوا . تكشف وجهها أمام الرجال حتى اقتن بها ذو الرمة وصاغ كثيراً من قصائده تغزلاً بها أو تشوقاً إليها، ولقد كانت ولادة أيضاً لا تبالي أن تستقبل الأدباء والشعراء في منتداها الأدبي بادية الوجه والمحاسن، حتى توله بها ابن زيدون. ولكننا نرى والله في افتتاح ذي الرمة بالأولى وتوله ابن زيدون بالثانية من الدليل على الحق الذي شرعه أحكم الحاكمين، أضعاف ما في استهتار كل منهما من الدليل على ما يشتهيه المبطلون!.. إن صح بينهما وجه للمقارنة والمفاضلة الشكلية!.

وحصيلة هذا الكلام كله، أن الدليل الشرعي إنما هو آية من كتاب الله أو حديث عن رسول الله أو إجماع أهل الحل والعقد من المسلمين أو قياس على حكم ثبت بدليل من تلك الأدلة الثلاثة. فهذه الأدلة هي التي تتحكم في تصرفات الناس وشؤونهم، وليست تصرفات الناس هي التي تتحكم فيها بأي نسخ أو تحوير أو تفسير .

وهذا كلام بين مفهوم لا يغيب إلا عمن كان صاحب غرض أو عصبية أو هوى، فهو يتجاهل البديهيات كي يقفز من فوقها إلى الأمر الذي يبغيه والهوى الذي يشتهيه.

الشبهة الرابعة: دليل أجهادي، يعتمد في الشكل، على قاعدة أصولية مشهورة وهي (تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان)^{[15]١٥} ويسير في النظر والأجتهاد على الطريقة التالية:

لم تكن الحياة فيما مضى قائمة على أساس التصنيع وسلطان الآلة، فلم تكن الحاجة ماسة إلى تكاثر الأيدي العاملة وتضافرها، وقد كان التشريع . سواء فيما يتعلق بشأن المرأة وغيرها . متفقاً مع طبيعة تلك الحياة، ومتسقاً مع مقتضيات تلك المرحلة الحضارية، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى خروج المرأة من بيتها إلا في حالات اضطرارية نادرة.

ولكن الحياة لما تطورت بعد ذلك تطورها الهائل العجيب، وأصبحت الآلة محور النمو الحضاري عند سائر الأمم والشعوب، وإذا التصنيع ضرورة لا بد منها لمقاومة أسباب التخلف، أصبحنا بحاجة ماسة إلى حشد كل يد عاملة والاستفادة من كل طاقة إنسانية للحاق بحركة الآلة وإدارة عجلة التصنيع. وإنما يكون ذلك باشتراك المرأة التي هي نصف المجتمع مع الرجل في قيادة هذه الحياة الجديدة والاستفادة من طبيعتها. ولا يمكن أن تشترك المرأة معه في شيء من مرافق الحياة الجديدة وهي مقيدة بقيود الستر والحجاب. وهكذا تبدل الزمن الذي نشأ في ظلله الحكم الشرعي السابق، فاقضى الأمر أن يتبدل الحكم معه تطبيقاً لقاعدة (تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان).

فهذه شبهة اجتهادية يرددها اليوم كثير من الناس، وبعضهم يدرك وجه المغالطة فيها، ولكنه يخادع المسلمين بها، وبعضهم يحسبها دليلاً شرعياً صحيحاً فيمضي يحتج بها ويفتي بين الناس على أساسها!..
والحقيقة أنه لا القاعدة الأصولية التي يحتجون بها ذات صلة أو علاقة بهذا الموضوع، ولا التطور الصناعي المزعوم مستوجب لكل هذا الذي يدعون.

مثل هذا الكلام يقال في أمة تشكو مصانعها الوفية. العامرة الفراغ من الأيدي التي تديرها، أو في أمة تبحث فيما بينها فلا تجد شاباً واحداً يتسكع على ناصية شارع أو يجتر البطالة في زاوية أحد المقاهي. ومعلوم أن مثل هذه الأمة لم تظهر بعد حتى في دول الدرجة الأولى بهذا الاعتبار.

يظن هؤلاء الناس أن المرأة في أوروبا وأمريكا إنما تشترك مع الرجل في العمل من أجل أن يتعاونوا للحاق بالآلة التي لا تتوقف، فيحلو لهم . بناء على هذا الموهوم . أن يستعوضوا عن التخلص الحقيقي من واقع ما يعانونه من التخلف والعجز، بمجرد المحاكاة والتقليد في أمر تهواه النفوس وتركن إليه الجنسية عند الإنسان. فيمضون يسلكون إلى التقدم الصناعي أو الحضاري هذا السبيل الشهواني وحده، وكأنهم قد فتحوا بذلك أمامهم مغاليل الدنيا كلها!..
وبديهي أن هذا الظن خطأ من أساسه.

إن اشتراك المرأة مع الرجل في مجالات الكسب، في أوروبا ونحوها، يرجع إلى دافعين:

أولهما: تقاوم سلطان الإباحية والمتعة الجنسية، حتى لم يعد يصبر الرجل عن المرأة والعكس، في أي طور من أطوار العمل أو شأن من شؤون الحياة. فلارجل حريص على أن تكون المرأة إلى جانبه في الوظيفة التي بها والمعمل الذي يشتغل فيه، والمتجر الذي يتردد عليه، والمطعم الذي يغشاه، والشارع الذي يسير فيه. وهو بطبيعته وضع شاذ يتسبب في شقاء الجنسين أكثر مما يتسبب في إسعادهما. ثانيهما: دافع الشح والتكاليف المادي. والرجل الغربي يعاني اليوم من هذا الشح الشيء المذهل العجيب!..فرب الأسرة، لا يرى ما يدعو له للإنفاق على ابنته، ما دام يعتقد أنها قادرة على أن تذهب فتشتغل في أي وظيفة أو معمل أو مطعم أو فندق!..وكذلك الزوج، لا يرى ما يدعو للإنفاق على الزوجة التي بوسعها أن تتطلق فتأتي بالمال من أي مكان.

^{[15]١٥} هذه القاعدة هي كل ما يحفظه ويعرفه المفتونون بالحياة العصرية الجديدة من قواعد الشريعة الإسلامية وأصولها.

وهكذا، فإن البذخ الشديد من جانب، يستلزم الشح والبخل الشديدين من جانب آخر!.. لأن أولهما لا يأخذ حظه إلا بالاعتماد على الثاني.

إن على مروجي هذه الشبهة أن يدركوا ما يمكن أن يدركه كل مفكر، من أن انصهار الغرب في أتون المادة حول الذات الإنسانية بكل خصائصها وأشواقها ونوازعها الخلقية إلى ما يشبه كتلاً ممسوخة من المادة!.. فهي تتحرك وتذهب وتجيء في فلك المادة وسلطانها، فلا جرم فن كان ما يسمى بالأسرة هناك قد انصهر في ذلك الأتون أيما انصهار. فأى قيمة أو معنى يبقى لذات الأسرة وتماسكها عندهم، إذا كان انتشارها يعني تحول كل جزء من أجزائها إلى عمل آلي يحقق رقماً مالياً معيناً!.. وهكذا، فالأسرة في أوروبا عنوان لا مسمى له على الصعيد الغالب اليوم، وقد انعكست آثار ذلك على مجتمعاتها العامة. وباتت تنذرنا بدمار مذهل رهيب.

سبحان من قضى أن يعيد التاريخ نفسه!..

فلقد كان هلاك الرومان، بسبب تقاوم الإباحية وأمر الجنس، واستتبع ذلك نفس النتيجة التي عانى أوروبا منها اليوم: الشح الشديد من جانب، والبذخ الشديد من جانب آخر. ولقد أطلق فيلسوفها الحكيم (كانون) صيحة النذير دون أي جدوى وذلك حين قال: (يا أيها الرومان، لقد سمعتموني كثيراً ما أشكو من إسراف الرجال والنساء والعامة والمتشرعين أيضاً.. ولقد سمعتموني كثيراً ما أقول: إن الجمهورية مصابة بداءين متناقضين: الشح والبذخ!.. وهما الداءان اللذان قلبا للممالك العظيمة رأساً على عقب)^{[16]١٦}. فهذه هي دوافع اشتراك المرأة من مع الرجل في مختلف مجالات الكسب والعمل، يعلمها كل متبصر عاقل. وليست شيئاً مما يسمى بضرورة اللحاق بعجلة الآلة والسيطرة على حياة التصنيع وما إلى ذلك. وإذا كانت هذه هي الدوافع الحقيقية، فما لنا نحن وراء تقليد أصحابها، وليس هذا فحسب، بل نرفع الرأس بذلك عالياً، متخيلين أنا لما قلدناهم في هذا الأمر أصبحنا مثلهم في كل نهضة ينهضونها وفي كل تقدم يحرزونه!..

إن أهم الحكم التي اقتضت تشريع آداب المرأة في ديننا الإسلامي، إنما هو المحافظة على قدسية الأسرى وكيانها فكيف نصطنع الاجتهاد في دين الله والاعتماد على قواعد شرعية فيه، ابتغاء الوصول إلى نهاية يتحطم فيها كيان الأسرة، وتتهوى قدسيته، وتضيع فيها عن رشد أخلاقيتها الفاضلة؟.

فهذه هي الشبهات التي يتمسك بها من يضيق ذرعاً بحجاب المرأة وسترها، ولا أظن أن ثمة مزيداً عليها ولو علمت أنه قد يوجد مزيد، لبحثت عنه ثم عرضته للنظر والتقويم.

وقد رأيت أن الشبهات كلها، إن هي إلا حواجز مصطنعة لإبعاد الحكم الإسلامي الواضح الصريح عن مجال الرؤية السليمة الصافية، يعلم هذا حتى أولئك الذين يروجون هذه الشبهات ويحتجون بها، ولكنهم يراقبون ألسنتهم أن لا تنطق بشيء من كوامن هذا العلم. فهم في ذلك كما قال الله عز وجل عن طائفة من أشباههم:

(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً..^{[17]١٧}.. ولو أنا جارينا هؤلاء الذين يدندنون بشبههم هذه في كل معترك ومجال، وفرضناها حججاً سليمةً. وما هي كذلك وإنهم ليعلمون أنها ليست كذلك. فإنها لا تؤيد شيئاً من هذا الواقع المنحرف الرهيب الذي انسأقت إليه جمهرة كبرى من الفتيات والنساء المسلمات.

أي شبهة من هذه الشبهات المختلفة بجيز للفتاة. على تخيل صحتها. أن تخرج إلى الشارع بادية النحر والذراعين والفخذين!! أم أي شبهة منها بقي المرأة المسلمة بأن تسامر ضيوفها وتكرمهم بما لديها من فنون الزينة والإغراء، كما هو الواقع في كثير من البيوتات المسلمة اليوم؟.

^{١٦} [16] دائرة المعارف لفريد وجدي: ٦١٨/٨.

^{١٧} [17] النمل: ١٤.

إذاً، فإن الأمر الذي نشكو منه اليوم، انحراف ديني واجتماعي خطير لا مجال لإنكاره والتردد فيه، ولا علاقة لهذه الشبه . مهما كانت . بتسويغه.

ولا ريب أن هذا الواقع الرهيب ذو خطر أجلي وأشد من خطر الفتاة المستترة في نظر من يرى أن تسترها شيء زائد على ما قد جاء به الشرع. لا يماري في هذه الحقيقة إلا مكابر من طراز نادر وعجيب.

وإذاً فلنتساءل: أيهما تعتبر مشكلة محتاجة منا إلى معالجة وحل؟ المرأة التي تحتاط لدينها وتبالغ في تحقيق مرضاة ربها فتفيض على جسمها مزيداً من الستر وتفيض منه على وجهها وسائر أطرافها، مخافة أن يتأملها ناظر بشهوة فتكون هي المسببة له بذلك فتبوء بإثمها وإثمه، أم المرأة التي تتأول حجاب الجسم بعفة النفس وتتخذ من كشف بعض شهيرات النساء عن وجوههن دليلاً على زيف الحجاب من أساسه فتنتقل بين الرجال عارضة من جسمها كل ما فيه زينة وفتنة وإغراء، دون أن تتقيد من ذلك كله بحد إلا ما تقرضه (الموديلات) المتناسخة التي ترعاها دور الأزياء الأوروبية في مظاهرها واليهودية الصهيونية في باطنها؟!..

أجل، أيتها لاخت المفكرة : أيهما تعتبر مشكلة فكرية واجتماعية وخلقية تحتاج إلى اهتمام وحل؟..

أليس من أعجب العجب أن نجد طائفة من كتابنا . وهم مسلمون بألسنتهم . وكثيراً من مجلاتنا . وهي مطبوعة بطابع التوحيد والإيمان .

تجعل من الحيلة في دين الله والاهتمام الصادق بشرع الله مشكلة المشكلات وكبرى المصائب، فتجد لها الأقلام وتستعين لحلها بالصور المغرية أنا والساخرة أنا آخر، وبالإيحاءات والمعالجات النفسية المختلفة، كل ذلك من أجل أن طائفة من الفتيات المسلمات . وهن قلة على كل حال . دفعتهن الحيلة في جين الله أو التمسك بشرع الله، فاسدلن الحجاب على وجوههن أو على ما سواها من بقية أعضاء الجسم، دون أن يشفع للواحدة منهن أنها قد تساهم مع ذلك في خدمة مجتمعها ورعاية أمتها، وتقوم في مجال النشاط الثقافي والاجتماعي الصحيح، بما لا تقوم به الأخريات . ثم لا يستشعر هؤلاء الكاتبون أو هذه المجلات، في المقابل، بأي مشكلة أو خطيئة تحتاج إلى معالجة وتقويم في مظهر هذه الكثرة الكاثرة من النساء والفتيات اللاتي وقعن اسيرات تحت حكم بيوت الأزياء الحديثة التي عمل جاهدة على أن تتحكم بلباس المرأة في العالم الأوربي والأمريكي عامة وفي هذا الشرق الإسلامي خاصة!!..

أليس من أعجب أن نرى طائفة من الكتاب . وهم مسلمون بألسنتهم . يتعلقون بما قد يعثرون عليه من والوقائع الفردية لحال بعض نساء التاريخ الإسلامي، ليسوغوا به هذا الواقع الأليم الذي لا يقره دين سماوي صحيح ولا خلق إنساني سليم، ولا ينطوي إلا على شر خطير، طالما تتادى المصلحون لمعالجته وغالط بعضهم بعضاً في الإشارة إلى مصدره . ثم لا يعرجون على شيء من حكم الله الواضح الصريح في كتابه وعلى لسان نبيه والمجمع عليه عند أئمة المسلمين، ليتخذوا منه وسيلة إلى إصلاح شيء من هذا الفساد العظيم، وتخفف قدر ولو يسير من بلاء هذا التعري الذي انجرفت إليه الاسرة المسلمة دون أن تجد في طريقها أي مقامة ولا تنبيه!!..

عشرات الأبحاث والمقالات تنشر بين الحين والآخر في الغمز واللمز والسخرية من بقايا حجاب الفتاة المسلمة، وهو لم يقدم إلى الناس إلا الفائدة والخير، ولا يكتب في مقابلها بحث واحد يلفت فيه النظر إلى ضرام هذه الناي التي تتقد في كل بيت وتندلق إلى كل شارع ومجتمع، وهو لم يقدم إلى جيل هذه الأمة، بل إلى شاب العالم كله، إلا أخطر أسباب الهلاك والدمار!!..

أقوال لا رصيد لها

ومهما يكن من أمر هذه الشبه الباطلة، فإن لأعداء هذا الدين حججاً وأقوالاً أخرى يتأملون أن يدعوا بها باطلهم!!.. ولكنها أقوال لا رصيد لها من المعنى الذي يمكن أن يتقبله العقل السليم. إنها من نوع ما يسميه علماء المنطق بالسفسطة التي لها شكل الحجة وليست لها حقيقتها!!..

وهي أقوال يراد بها إخضاع النفس أكثر مما يراد بها إقناع العقل.

وما أكثر ما ضلت فتيات مؤمنات، عن رشد العقل، بهذه الأقوال المرصوفة الخادعة، وما أكثر ما تبين لهن أنها أباطيل خادعة، ولكن ذلك لم يتبين لهن إلا بعد أن تجاوز الأمر بهن إلى نهاية لا طاقة لهن على الرجوع عنها، بل إلى أودية سحيقة لا سبيل لهن إلى التسامي فوقها!!..

وإنني . أيتها الأخت المؤمنة . سأعرض لك جميع هذه الأقوال بزخرفها الخادع، ثم أجردها أمامك من زيفها اللصيق لتري عظيم ما فيها من الخداع والتضليل، حتى إذا تبين لك ذلك، كنت أقدر على الصمود في وجه الباطل الذي تتعرضين له، وأكثر ثباتاً وصلابةً على الحق الذي تعتزين به.

يقولون لك: إن عفة الفتاة حقيقة كامنة في ذاتها، وليست غطاء يلقي ويسدل على جسمها، وكم من فتاة محتجة عن الرجال في ظاهرها، وهي تمارس معهم البغي والفجور في سلوكها، وكم من فتاة حاسرة الرأس سافرة الوجه لا يعرف السوء سبيلاً إلى نفسها أو سلوكها.

وأقول لك: إن هذا صحيح. فما كان للشباب أن تتسج لصاحبها عفة مفقودة، ولا أن تخلق له استقامة معدومة، ورب فاجرة سترت فجورها بمظهر سترها. ولكن من هذا الذي زعم أن الله إنما شرع الحجاب لجسم المرأة ليخلق الطهارة في نفسها أو العفة في أخلاقها؟.. ومن هذا الذي زعم أن الحجاب إنما شرعه الله ليكون إعلاناً بأن كل من لم تلتزمه فهي فاجرة تتحط في وادي الغواية مع الرجال؟.. إن الله جل جلاله إنما فرض الحجاب على المرأة محافظة على عفة الرجال الذين قد تقع أبصارهم عليها، لا حفظاً على عفتها من الأعين التي تراها!.. ولئن كانت تشترك معهم هي الأخرى في هذه الفائدة في كثير من الأحيان، فإن فائتهم من ذلك اعظم وأخطر. وإلا فهل يقول عاقل . تحت سلطان هذه الحجة المقلوبة . إن للفتاة أن تبرز عارة أمام الرجال كلهم ما دامت ليست في شك من قوة أخلاقها وصدق استقامتها؟!..

إن بلاء الرجال بما تقع عليه ابصار من مغريات النساء وفتنتهن ، هو المشكلة التي أوجبت المجتمع إلى حل، فكان في شرع الله ما تكفل به على أفضل وجه. وبلاء الرجال، إذا لم يجد في سبيله هذا الحل الإلهي، ما من ريب سيتجاوز بالسوء الى النساء أيضاً. ولا يغني عن الأمر شيئاً أن تعتصم المرأة المتبرجة عندئذ باستقامة في سلوكها أو عفة في نفسها. فإن في ضرام ذلك البلاء الهائج في نفوس الرجال ما قد يتغلب على كل استقامة أو عفة تتمتع بها المرأة إذ تعرض من فنون إثارتها وفتنتها أمامهم.

ويقولون لك: إنه إذا شاع الاختلاط بين الرجل والمرأة، تهذبت طباع كل منهما، وقامت بينهما بسبب ذلك صداقات بريئة لا تتجه الى جنس ولا تتحرف نحو سوء!.. أما إذا ضرب بينهما بسور من الاحتجاب، فإن نوازع الجنس تلتهب بينهما وتغري كلاً منهما بصاحبه!.. فيشيع من ذلك الكبت في النفوس، وسوء في الطباع!.

وأقول لك: صحيح أن مظاهر الإغراء قد تفقد بعض تأثيراتها بسبب طول الاعتياد وكثرة الشيوخ. ولكنها إنما تفقد ذلك عند أولئك الذين خاضوا غمارها وجنوا من ثمارها، خلال مرحلة طويلة من الزمن، فعادوا بعد ذلك وهم لا يحفلون بها. وبديهي أن ذلك ليس لأنهم قد تساموا فوقها، ولكن لأنهم قد بشموا بها، ولأنهم يشبعون كل يوم منها.

إن رؤية المناظر والمواقف الجنسية المثيرة في بلدة كالسويد مثلاً، تعتبر أمراً عادياً لا يثير استغراباً ولا استهجاناً بالنسبة لأولئك الذي نشؤوا وعاشوا في تلك الأجواء. فهل يعني ذلك أنهم قد تجاوزوا طبيعة التأثير بدواعي الانحراف وأسبابه، فهم لا ينحطون إليها ولا يتأثرون بها؟!.. أي مجنون من الناس يقول هذا؟!..

كلنا يعلم أن هذا يمر بالمشاهد الجنسية المكشوفة هناك، غير عابئ بها ولا ملتفت إليها، قد تجده بعد ساعة يمارس العملية نفسها في مكان آخر. وهكذا فإن عدم الاكتراث والتأثير بمظاهر الإغراء، إنما هو نتيجة انتشار اللذة رخيصة في كل مكان، وليس نتيجة فهم معين أو جديد لما قد تبصره عيناه.

والذي يتصور تحقق الزهد في الجنس، دون أن يكون نتيجة لانتشاره وإباحته، إنما هو كمن يتصور إمكان زهد الجائع في الطعام بمجرد أن تتناثر أطباقه الشهية أمام عينيه في واجهات المحلات عن يمين الشارع ويساره.

وإنما (الصداقة) كلمة يطلقها هؤلاء الناس على تلك الفترات التي يلتقط فيها الاصدقاء أنفاسهم بعد انجراف طويل في أدغال الحيوانية والإباحية المطلقة.

وإنها لحقيقة ثابتة يعرفها (الأصدقاء) قبل أن يعرفها الآخرون!... والكبت!.. أيهما يورث الكبت؟: أن يخرج الشاب إلى شأنه من وظيفة أو عمل أو دراسة. فلا تقع عينه على ما يثير شيئاً من كوامن غريزته. فيعود إلى بيته هادئ النفس مستريح البال نشيط الفكر، أم أن يخرج من بيته فتستقبله مغريات الجنس من كل جانب وصوب وبكل أسلوب وفن، فتحتاج نفسه وتثور غرائزه، حتى إذا دنا ليمتع نفسه ويشبع غريزته اصطدم بحواجز القانون ورقابة البوليس وشهامة الزوج أو القريب!..

أجل.. أيهما يورث الكبت!.. لقد سألت هذا السؤال شاباً جامعياً أعلي أمامي عن تقدميته المطلقة، وتعلل بالكبت والألفاظ المشابهة الأخرى، فغص بالجواب!.. ولكني أجبت عنه فقلت: لعلك لا تريد أن تثور على الحجاب والستر فقط، وإنما أنت تهدف إلى الثورة على ما وضعته الشرائع والقوانين من ضوابط الصلات الجنسية بين الرجل والمرأة، ابتغاء الوصول إلى إباحية مطلقة يشترك فيها الإنسان مع أخيه الحيوان تخلصاً من الكبت الذي تتحدث عنه!..

فإذا كان الأمر كذلك، فلا تتحدث عن الحجاب ونقده، قبل أن تبحث بجرأة، مع الأزواج والآباء وشرائع الله وقوانين الأرض وفطرة الغير الطبيعية عند الإنسان، في مشروعك الحيواني الذي تدعو إليه. حتى إذا استجابوا لك جميعاً، أن لك حينئذ أن تثور على حجاب لا لزوم إله محتجاً بما تستعمله من ألفاظ الكبت ومرادفاته المحفوظة.

ويقولون لك: إن حجاب المرأة عائق عن مشاركتها الرجل في نهضته الفكرية والثقافية والاجتماعية، وإنما أولى الخطوات إلى أي نشاط فكري أو اجتماعي أن تسفر الفتاة عن وجهها وتحطم ما بينها وبين الرجل من حواجز واعتبارت. كما أن أول السبيل للقضاء على ملكاتها واستعداداتها الفكرية والاجتماعية المختلفة أن تحبس نفسها في قفص هذا الحجاب، وتضع بينها وبين الرجل حاجزاً مما تسميه الستر والآداب!..

وما يتحدث أحدهم عن جهل المرأة وتخلفها إلا ويجعل من صورة المرأة المحتجبة مظهراً لذلك، وما يتحدث عن ثقافة المرأة وتقدمها ونشاطها الفكري والاجتماعي إلا ويجعل من صورة المرأة العارية أو السافرة مظهراً لذلك!..

وأقول لك: إنني أجزم بأن هذا التلازم المختلق إن هو إلا بهتان كبير لا أساس له ولا دليل عليه!..

إنني أقرر لك . وأنا شاهد عيان . أن في فتياتنا الجامعيات متحجبات بحجاب الإسلام، مستمسكات بحكم الله عز وجل، وهن أسبق إلى النهضة العلمية والثقافية والنشاط الفكري والاجتماعي من سائر زميلاتهن المتحجرات.

لقد رأينا الكثير من مظاهر التبذل والعري في إفريقيا وبعض جهات أوربا، وما رأيناها تبعث بشيء من سحر النهضة العلمية والنشاط الفكري والثقافي؟. ولقد رأينا، في مقابل ذلك، الكثير من مظهر المحافظة على شرع الله وحكمه في المظهر والزينة واللباس، دون أن ينحط هذا المظهر بصاحباته عن أوج الرقي الفكري والحركة الثقافية الناشطة.

وإن كل مطلع على التاريخ، يعلم أن تاريخنا الإسلامي مليء بالنساء المسلمات اللاتي جمعن بين الإسلام أدباً واحتشاماً وسترًا، وعلمًا وثقافة وفكرًا، وذلك بدأ من عصر الصحابة فما دون ذلك، إلى عصرنا الذي نعيش فيه.

إن التخلف له أسبابه، والنقد له أسبابه!.. وإقحام شريعة الستر والأخلاق في الأمر، خدعة مكشوفة ثقيلة لا تنطلي إلا على متخلف عن مستوى الفكر والنظر الحر.

ونحن لانشك أنه قد التقى في بعض الاحيان التخلف الفكري والثقافي عند المرأة بمظهر الستر والصيانة والاحتجاب كشأن المرأة اليوم في بعض أطراف الجزيرة العربية والخليج العربي، ولكن مما لا شك فيه أن هذا التلاقي لم يكن أمراً ضرورياً وليس بينهما أي لزوم حتمي. وإنما هو واقع اتفاقي ساعدته ظروف استعمارية وفكرية معينة.

وليس أسهل على المصلحين إذا أرادوا الإصلاح الحقيقي، من أن يفصلوا بين الواقعيين بوعي إسلامي سديد، يؤيد الستر والاحتشام، ويدفع إلى التزود من العلوم والثقافة النافعة، ويجعل من كل منهما عوناً للآخر.

ويقولون لك: إن الفتاة لتي تحبس نفسها عن الناس من وراء حجاب، إنما تحرم بذلك شبابها بل حياتها من سعادة الزواج. فالشباب إنما يقبل على الفتاة التي يعجب بها، وإنما يعجبه منها . قبل كل شيء . جمالها وما يتصل به من مظاهر شخصيتها، وأنى له أن يطمئن إلى ذلك منها إذا لم يتهياً له ان يراها ويخلط نفسه بطرف من شأنها وطباعها؟.. وكيف يتهياً له ذلك إذا كانت تأبى إلا أن تحبس نفسها عنه وراء سور البرقع والحجاب؟.

تلك هي حجة الأمهات لبناتهن، تحسب الواحدة منهن أنها تجلب الخير بذلك لابنتها، وتقرب السبيل لها إلى اختيار فتى أحلامها. ويزيدها في ذلك اندفاعاً إغراءات جنود الشيطان من حولها، يستغلون لديها هذه الرغبة، فيزيدون من مخاوفها إن تزيت ابنتها بلباس الإسلام، ويدعمون آمالها إن هي تحررت منه وانسابت بين صفوف الشباب تعرض من زينتها عليهم وتخلط نفسها بهم!.. وأقول لك: إنها لخدعة باطلة توهي بعكس الواقع والحقيقة!.. خدعة يصيغها دعاة الباطل على علم، وتتطلي على أفكار الفتيات وأمهاتهن جهلاً وخداعاً!..

ولو تأملت الواقع الذي نعيش فيه، لرأيت نسبة الإقبال على الأسر والفتيات المحافظات للزواج منهن أكثر بما يقارب الضعف من الإقبال على الأسر المتحررة اللاتي يطبقن الوصفة الخادعة التي أغتررن بها. بل إن الزواج . عموماً . يشيع بين الأسر المحافظة المتدينة أكثر مما يشيع بين الأسر الأخرى بنسبة تزيد على الضعف، يعلم تفصيل ذلك كل من يرجع إلى الإحصائيات المفصلة في هذا الشأن.

ولأوضح لك الاسباب القريبة والبعيدة لهذه الحقيقة، حتى تزدادي يقيناً بحكمة الخالق جل جلاله، وبأن الإنسان لن يجد مصلحته مكلوءة بعناية وحفظ إلا في تطبيق شرع الله عز وجل. إن الشاب في مجتمعنا، لا يعدو أن ينتمي إلى أحد صنفين:

الصنف الأول متدين في الجملة، فهو متقيد بأداب الإسلام ومعظم أحكامه ولا سيما الاجتماعية منها والبارزة. فالشباب من هذا الصنف لا بد أن يتزوج فيما بين العشرين والثلاثين من عمره، لا يستثنى من ذلك إلا أصحاب الظروف الاستثنائية الخاصة. والزواج في اعتبار مثل هذا الشاب بمثابة ساعة الإفطار للصائم، يحشد له جميع آماله الدنيوية في الحياة، ويجعل منه ركيزة سعادته كلها!.. والشباب من هذا الصنف يبحث عن الفتاة كما يحبها، ولكن ضمن دائرة الستر والصيانة التي آمن بها ونشأ في داخلها. وحتى لو ندت به الظروف عن هذه الدائرة في بعض الأحيان لأسباب مما قد يمتحن به الشاب، فإنه لا يطمئن لفتاة ستصبح أمّاً لأولاده إلا إذا رأى طابع الدين والستر جلياً وأصيلاً في حياتها.

وهذا الشاب لن يصطدم بمشكلة الجهل بشكلها أو عدم الاطمئنان إلى خلقها، فإن شريعة الله عز وجل قد حلت له المشكلة عندما شرعت له، بل أمرته أمر إرشاد وندب أن ينظر إليها ويكلمها، حتى إذا شعر من نفسه أنه لم ينل حظاً كافياً في المرة الأولى لمعرفتها وتبين ما ينبغي أن يطمئن إليه منها، كان له أن يعاود النظر ثانية وثالثة.

الصنف الثاني متقلت عن سلطان الدين وأحكامه، فهو لا يبالي أن يتمتع نفسه بحظوظها كلما تسنى له ذلك لا فرق بين أن ينالها من حل أو حرام!.. فالشباب من هذا الصنف إن تزوج، فهو إنما يدخر زواجه إلى أواسط عهد الكهولة أو آخرها. ولن تجد واحداً من هؤلاء تزوج قبل سن الخامسة والثلاثين!.. إلا أن يكون ذلك لظروف استثنائية نادرة.

والزواج في اعتبار مثل هذا الإنسان كرجوع السائح إلى داره بعد نزهة استنفدت المتعة فيها كل نشاطه وطاقاته، حتى إذا أدركه الملل والجهد، عاد إلى داره يبغي فيها الراحة والهدوء!.. فهو . وقد نال من صنوف اللذات مغماً بدون مغرم . إنما يريد من الزوجة الآن ان تعينه في راحة ينشدها أو قرار يتطلبه، أكثر من أن يريد بالزواج متعة يشترك مع الزوجة فيها، وسعادة يلتقي مع الزوجة على ارتشافها!..

وما أكثر ما تظاهر بالرغبة في الزواج من قبل، فانجذبت الفتيات إليه من هنا وهناك، كل تعرض له ما عندها من زينة ورقة وجمال، على مذهب هؤلاء المخدوعات اللاتي يحسبن أن الفتاة لا يمكن أن تعثر على الزوج الذي تبغيه إلا في الشارع الذي تتعري فيه، فتدوق من هذه وتلك وتيك.. ونال ما يبغيه منهن . كما قلنا . غنيمة بدون مغرم. إذ تلهي بكل منهن خلية اليوم، ثم نبذها وراءه خلية الغد!...

وبين الرجل والمرأة فارق في التسابق إلى حظوظ النفس، قلما يتبينه الناس، تكون المرأة هي الخاسرة فيه دائماً!.. إذ المرأة مهما تحللت عن قيود الدين والآداب فإنها لا تصل إلى قمة سعادتها إلا في ظلال بيت تصبح أما سعيدة فيه. والرجل مهما كان شأنه إنما تهفو نفسه إلى نعيم تصفو لذاه عنكدورة الغرامة أو المسؤولية أو الجهد، ولا يطم نفسه عن التعلق بذلك إلا دين يتحكم بمجامع قلبه. فإذا فقد الدين فإن الرجل والمرأة يلتقيان على مائدة تكون المرأة دائماً هي الطرف المغلوب فيها!..

وحصيلة هذا الكلام كله، واقع مشاهد ملموس لا يحتاج الإنسان لرؤيته إلا إلى تأمل وانتباه، وهو أن نسبة الذين يقبلون على الزواج من الشبان المتدينين تزيد على ضعف نسبة من يقبلون عليه من المتحللين أو المتحررين. والمتدينون لا يتزوجون إلا في الحجز الصالح ولا يتعلقون إلا بجمال زانه خلق وستر ودين، ونتيجة لذلك فإن العنوسة لا تشيع. في أم الأحوال. إلا في الأسر التي شاءت أن تتفلس عن منهج الدين وحكمه وتربيته.

يا أختي المؤمنة: إن فيما أوضحته لك ما يكفي لإقناعك. بالمنطق الذي لا التواء فيه. بأن اتباع شريعة الله تعالى لا يضمن لك بلوغ من مرضاة الله فحسب، بل هو يضمن لك إلى جانب ذلك تحقيق أسباب سعادتك الدنيوية كلها. والسعادة ليست في تحقيق الخيال الذي تتصورين، وإنما هو في الواقع الذي يورثك الطمأنينة، ويشيع في حياتك الارتياح والرضى.

أما وقد تبين لك كل ذلك، فقد أن لك أن تهضي لاستجابة حكم مولاك العظيم، وأن تصطلحي مع الله عز وجل بعد طول نسيان وتتكسر له، فتتخذي من صراطه سبيلاً إليه، ومن حبه شافعاً بين يديه.

دعي انتقاد الناس وحسابهم، فإن حساب الله غداً أشد وأعظم!..

ترفعي عن السعي إلى مرضاتهم وتحقيق أهوائهم، فإن التسامي إلى مرضاة الله أسعد لك وأسلم.

ولسوف. تجدين. وأنت تعزمين على الرجوع إلى صراط الله. من يحاول أن يرهق مشاعرك تخديراً تحت وطأة هذه (النقلع) التي أحاطت به كما تحيط خيوط العنكبوت بضحيتها الحبيسة، وأن يذكر بك بفلانة التي كانت تبرز مفاتنا أمام الرجال، وفلانة التي كان لها (صالونها) الأدبي البارز بين الناس!.

وأما أنا فاذكرك بالحكم الإلهي الواضح الذي نقلته لك بأمانة، وبهذا الحديث الثابت عن رسول الله (ص) إذ يقول:

(صنفان من أمتي لم أرهما قط: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤسهن كأسنمة البخت المائلة (أي كسنام الجمال) لا يدخل الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا)^[18].

ولسوف تجدين أيضاً من يذكر بك بجمال هذه الدنيا ومغريات الارتواء من لاذئها وزينتها!.. ولكني أذكرك بخطورة عقابها، وجسامة ما ينتظرك من آثارها ونتائجها.. أذكرك بيوم الديان، إن كنت قد آمنت بوجوده..

إذكرك باليوم الذي يصدق فيه قول الله تعالى وهو يخاطب طائفة كبيرة من الناس: (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فالיום تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون)^[19] أذكرك بهذا كله فإن ذلك أدعى إلى أن تتلمسي لنفسك سعادة الدنيا والآخرة معاً.

ودعيني أذكرك أخيراً، بأن جميع هؤلاء الخادعين إنما ينظرون فيما ينصحون لك بزعمهم إلى أمر أنفسهم وحاجة شهواتهم. ولو أنني أردت لنفسي حظها، لفعلت مثلهم ولا انضممت إلى حزبهم، فأنا رجل في نفسي من هوى الرجال وشهواتهم مثل الذي عندهم جميعاً.

ولكني والله لا أريد أن أبوء بإثمي وإثمك يوم القيامة!.. أريد أن تكوني، باستقامتك على الحق، حية في ميزاني، وأن أكون، بما أذكرك به من الحق، حسنة في ميزانك. أريد لي ولك شيئاً أقدي وأسعد من كل شهوة ولذة وهوى!.

أريد لي ولك مرضاة الله.

¹⁸ [18] رواه مسلم والإمام أحمد.

¹⁹ [19] (الأحقاف: ٢٠).

كَلِمَةُ آخِرَةٍ

كلمة أخيرة، يجب أن أتجه بها إلى اللواتي استيقنت أفئدتهم الحق الذي بينته، غير أن الواحدة منهن تشعر ببعد النقلة بين الواقع الذي تعيش فيه والحق الذي آمنت به، فتركن أسفة إلى وضعها الذي تعيش فيه، وتعتذر إلى الله أو إلى الناس بأنها عاجزة عن مثل هذا القفز البعيد!.

وهكذا فإن في الناس طائفة كبيرة من المنحرفين والمنحرفات، لا يمسكهم على انحرافهم ويمنعهم من السعي إلى اصلاح حالهم إلا ما يرونه من بعد الفجوة وعمقاها بين الكمال الذي يسمعون عنه والواقع الذي يعيشون فيه.

ولكن هذا التصور خاطئ. فإن الفاصل الذي بين الحق والباطل إنما يتمثل في الفرق بين أدنى طرف من الباطل وأول درجة من درجات الحق، وفرق ما بينهما لفئة صغيرة وحركة بسيطة.

إن الحق الذي أوضحناه في الصفحات الماضية، ليس نهاية مستقلة تقبع في قمة السمو والكمال، ولكنه سلم ذو درجات متقاربة، تبدأ أولها عند طرف الباطل الذي تعيشين فيه، وتقف الأخيرة عند نهاية الكمال الذي يشدك إليه تشريع الله وحكمه. وإنما المطلوب منك . بعد أن تتبعت إلى الحق وآمنت به . أن تتحركي صاعدة في درجاته، لا أن تقفزي قفزة واحدة إلى نهايته!..

إذا كنت لا تملكين من الطاقة والإرادة، أو الظروف المساعدة، ما تفرضين به على نفسك حجاباً سابغاً للجسم والوجه، فلنقضي على نفسك ما دون ذلك مما تساعدك عليه الظروف والأحوال، وإذا كنت لا تجدين طاقة كافية لتغيير أي شيء من لباسك وهيئتك مهما كانت منحرفة وبعيدة عن رضى الله عز وجل، فلنقضي على نفسك ما دون ذلك تعالى بتدبر خلال كل صباح ومساء . وإذا كنت عاجزة عن الارتباط حتى بهذا القدر من سبيل الإصلاح، فلنقضي على نفسك ما دون ذلك، من استشعار خطورة الحال التي أنت فيها والالتجاء إلى الله تعالى بقلب صادق واجف، تسألينه العون والقوة. فإن صدق الالتجاء إلى الله تعالى ينبوع النصر والتوفيق. وما سار انسان إلى الحق بادئاً بخطوة من هذه الخطى، متجهاً إلى الله بصدق وعزم إلا وفقه الله تعالى في السير إلى نهاية الطريق والوصول إلى مجامع ذلك الحق.

وإنما المصيبة كل المصيبة أن تعلمي ألحق وتؤمني به، ثم لا تتجهي إليه بخطوة ولا بعزم، كأن الأمر ليس مما يعينك في شيء، أو كأن الذي شرع هذا الحق وأمر به لن تطولك يده ولن يبلغ إليك بطشه وسلطانته، أو كأن الآخرة وما فيها أهون من أن يتخلى الإنسان في سبيلها عن شيء من أمانيه وأهوائه!..

مثل هذه الحال يعد أعظم سبب لاستمطار غضب الله تعالى والتعجيل بعقوبته. وعقوبة الدنيا لا تتمثل هنا في بلاء عاجل يحيق بالإنسان، وإنما تتمثل في انغلاق العقل وقسوة القلب، فلا يؤثر في أحدهما تذكير ولا تخويف ولا تنبيه، مهما كانت الأدلة واضحة والنذر قريبة. حتى إذا جاء الموت، تخطفه وهو على هذه الحال، فينقلب إلى الله تعالى وقد تحول انغلاق عقله وقسوة قلبه إلى ندم يحرق الكبد، في وقت لا ينفع فيه الندم ولا رجوع فيه إلى الوراء .

وقد عبر الله تعالى عن هذه العقوبة وسببها بقوله:

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً)^[20].

فإذا كنتِ تؤمنين بالله، فلا ريب أنك تؤمنين بشريعته وباليوم الآخر الذي هو يوم الحساب والجزاء .

وإن من مستلزمات هذا الإيمان، أن تضعي الكلام الذي سرده عليك في هذه الرسالة موضع الجد والاهتمام من تفكيرك. حتى إذا أيقنت أنني لم أخدعك بباطل من القول، ولم أضع بين يديك إلا الحقيقة الصافية التي يتمثل فيها حكم الله عز وجل. كان عليك أن تنهضي إلى تطبيق هذا الحكم بالسير في مراحل المتدرجة. فإن رأيت أن حبال الدنيا وأهواءها وتقاليدها والصدقات والقربيات تشدك إلى الخلف وتصدك عن النهوض بأمر الله، فلا أقل من أن تفيض الحسرة في قلبك من ذلك، فيسوقك الألم إلى باب الله تعالى وأعتاب رحمته لتعرضي له ضعفك وتجاري إليه بالشكوى أن يهبك من لدنه قوة وتوثيقاً وأن يمنحك العون لتتحرري عن سلطان نفسك، وسلطان التقاليد والعادات، وسلطان الأقارب والصدقات. أما إن لم ينهض بك الإيمان إلى هذا ولا إلى ذاك، ولم يتحرك القلب الذي وراء ضلوعك بأي تأثير واهتمام لكل هذا الذي حدثت بك به. فلتكوني في شك من إيمانك بوجود الله تعالى، ولتعلمي أنك تسيرين. إن استمر بك الحال. إلى نهاية رهيبة ليس منها مخلص ولا مفر!.

ولتعلمي أن سكر هذه الدنيا لذيذاً، فيوشك أن تفجأك منها ساعة صحو وانتباه، وإنها والله لقريبة منك. ولتعلمي أن مذاقها مهما كان طيباً فإن في نهايتها غصة ستأخذ منك بالحلق، وإنها والله لمقبلة إليك. ثم أعلمني أنه ما من شاب يبتلئ منك اليوم بفتنة تغرينه أو تشغل له باله، كان بوسعك أن تجعله في مأمن منها، إلا أعقبك منا إذاً نكال من الله عظيم.

فأذكرك في آخر هذه الرسالة ما قد نبهتك إليه في أولها، من أن المرأة في حياة الرجل أخطر ابتلاء دنيوي له على الإطلاق، فاجعلي من تقوى الله تعالى في سلوكك، عوناً للرجل على السعي في سبيل مرضاة الله، ولا تجعل من الإيمان في معصية الله عوناً له على السير في طريق الشيطان. والله المستعان في الهداية والتوفيق.